الفصل الأول

نابليون وإيطالية

١٨١٤ — ١٨١٥

لقد كان الشعور بكيان قومى فى إيطالية فى أوائل القرن التاسع عشر ضعيفاً ، فمن الواضح أن الطليان ظلوا يحنون إلى الأيام التى كانت فيها روما تملى إرادتها على العالم . ولما زالت السيطرة الإسبانية عن إيطالية فى القرن الثامن عشر ، وتوقفت النمسة فى الشمال ، وأخذت بيمونته ؟ تخطو خطاها فى بطء فقد ظل الطليان قانعين باتحاد وهمى لدول لا شأن لها يقوم مقام الأمة . ولقد كان النصف الآخر للقرن المذكور دور سكون وإصلاح أورث إيطالية رفاهة وتقدماً فى الإصلاح الاجتماعى وازدهاراً فى الفنون وإبداعاً فى الشعر والغناء ، إلا أنها كانت فاقدة استقلالها ومحرومة حريتها .

ثم نشبت الثورة الإفرنسية ودفعت الإفرنسيين للتوغل فى إيطالية ، فانهارت بذلك الإمارات الإيطالية ، وأقام نابليون جمهوريات وممالك سرعان ما قضت قضاء مبرماً على السياسة الاجتماعية القديمة . ولعل إيطالية هى البلاد الوحيدة التى تعمد نابليون أن يشجع فيها الشعور القومى إذ لاح له أن وحدة التقاليد

واللغة والآداب كفيلة بأن تجعل من إيطالية أمة واحدة ، ومما حفزه على تأييد هذه الفكرة شعوره بأنه يمت إلى أصل إيطالى من جهة ، وأخذه بالسياسة التقليدية التى سارت عليها فرنسة فى إقامة موانع فى وجه النمسة من جهة أخرى . حقاً إن نابليون هو مؤسس إيطالية الحديثة ومما لا شك فيه أن إيطالية استفادت كثيراً من الاحتلال الفرنسى لأنه قضى على الإقطاعية السائدة فيها حينذاك ، وجهزها بقوانين موحدة ومراقبة نافعة ، وفتح فى وجه أبنائها أبواب الكفاية ، وأمد الصناعات بفيض من النشاط ، وساعد إلغاء الأديرة على التخلص من الديون ، فانتشرت المدارس فى لمبارديه ونابولى وحمل الجنود الطليان — الذين رافقوا نابليون فى أسفاره وغزواته حين عودتهم إلى بلادهم — ذكريات البطولة وبثوا فى الأمة روحاً جديدة .

ولقد أتى أسلوب نابليون فى سياسة البلاد بنتائج باهرة جداً ، إذ أزال سلطان الأمراء بالكلية وقضى بذلك على الدويلات العشر فى شبه الجزيرة ، فألحقت بفرنسة بيمونته الشرقية ودوقيات جنوه وبارمه وطوسكانه ودويلات الكنيسة حتى جبال الإبنين ، وتألفت مملكة إيطالية من دوقيات لمبارديه وفنيسيه ومودينة والرومانى والمارك ، فأصبح أوجين بوهارنه نسيب الإمبراطور وصياً عليها . أما نابولى فأصبحت مملكة يحكمها المارشال مورات [1]

(١) أحد مارشالية نابليون وزوج أخته كارولين بونابرت .

فأسست هذه الدول روابط متبادلة وتشابهت إدارتها إلى حد ما .

ثم سقط نابليون فانهار بسقوطه كل ما قام به فى إيطالية من أعمال ، على أنه رغم ما أسدى إلى إيطالية من خدمات جليلة فإنه فى كثير من أعماله قد مس كرامة الطليان القومية ، وأثار حنقهم ؛ فقد مات منهم ستون ألفاً ونيف فى إسبانية وفى روسية فى سبيل قضية لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، فكانت الضرائب فادحة ، ودلت أعمال الشرطة والرقابة السياسية فى ذلك العهد على أن الحرية والإمبراطور على طرفى نقيض ، أضف إلى ذلك أن المدن كانت حانقة بسبب ما نهب من متاحفها من آثار . أما الإهانة التى ألحقها بالبابا فكانت بمثابة تحرش بالدين واستهانة بوطنية الدهماء ، ومع ذلك كله فالشعور بالوطنية الذى بثه نابليون ظل راسخاً فى النفوس ، وراح الطليان يعتزون بمفاخر مملكة إيطالية ويتحدثون عن أمجادها ، فطالما سعى الحلفاء لتأليب البلاد على نابليون ملوحين لها بالاستقلال ، وحين أخذ نجمه يأفل أبى أوجين بوهارنه أن يلبى نداء قائده ، أما المارشال مورات فإنه أخذ يسعى للاحتفاظ لنفسه بمملكة نابولى .

أما فى ميلانو عاصمة المملكة فقد انشقت الآراء إلى شيع : ففريق يميل إلى النمسة ويدعى بالحزب الإيطالى ، وهو يرى فى فرنسة خطراً على السلم ويسعى فى سبيل عودة الحكم النمسوى ذاكراً الحكم الذاتى الصالح فى عهد ماريا تريزا ويوسف الثانى ، وكان

ساسة فينا يغدقون على الطليان الوعود الخلابة فى الحرية والاستقلال . أما أشراف ميلانو فقد كان أكثرهم ضد النمسة وضد نائب الملك أوجين ، وقد ألفوا الحزب الإيطالى الحر ، وكانت غايته ضمان استقلال مملكة إيطالية دون الاكتراث بجنسية الأمير سواء أكان نمسوياً أم إنجليزياً أم إيطالياً ، بيد أن بعض الأشراف كانوا يميلون إلى وحدة إيطالية بزعامة أسرة آل صافويه الإيطالية . واتفقت الأكثرية على الاحتفاظ بميلانو عاصمة للمملكة ، وبذلك كله يستعيد الأشراف ما فقدوه من امتيازات فى عهد نابليون ، ولم يلق أحد من هؤلاء بالا إلى فكرة الالتفاف حول الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يحقق استقلال إيطالية ألا وهو أوجين بوهارنه نائب الملك . ولما رأى هذا الرجل أن الأشراف تخلوا عنه لم يجرؤ على دعوة المجلس التمثيلى ليستشير بواسطته الشعب خشية أن يتهمه نابليون بالخيانة ، فلم يسعه حينئذ إلا أن يتخذ نصف التدبير فطلب إلى مجلس الأعيان أن يمارس صلاحياته ، وطالب الحلفاء فى الوقت ذاته بالتاج لنفسه .

ولم يكن لدى مجلس الأعيان الإرادة الكافية ليتحمل عبء تلك المهمة ، فاستفادت الأحزاب المعارضة فى الداخل والخارج من عجز مجلس الأعيان ، واتفقت فيما بينها على إسقاط نائب الملك ومجلس الأعيان معاً . وما كاد يشيع خبر تخلى نابليون عن الملك حتى لجأ الحزب الإيطالى إلى السلاح ، وطلب إلى مجلس الأعيان

دعوة المجالس التمثيلية ، وهب الشعب يظاهر هذه الحركة ويضغط على مجلس الأعيان ليحمله على الإذعان ، فما كان منه إلا أن قدم وزير المال ضحية لتردده وإهماله ، وكان فى استطاعة قائد الحامية أن ينقذ الموقف بإرسال الجند لإنقاذ حياة وزير المال ، وكان فى وسع جيش أوجين أن يقبض على ناصية الحال لو لم يخش من نشوب الحرب الأهلية . فكان من أمر ذلك أن انسحب مجلس الأعيان من الميدان ، فتولى المجلس البلدى مجلس الوصاية لمدة مؤقتة ، وأصبح هم هذا المجلس السعى لفصل لمبارديه من إيطالية وإدخالها فى الحكم النمسوى ، فدعيت المجالس التمثيلية فى لمبارديه فقط ، حيث يتكلم الناس اللهجة اللمبارديه ، وأوفد مجلس الوصاية مندوباً عنه إلى باريس لمطالبة الحلفاء بالاستقلال والدستور ، ولكنه وجد أن مصير لمبارديه قد بت فيه قبل وصوله ، ذلك لأن أوجين استسلم بلا مقاومة إلى القائد النمسوى الجنرال بلجارد وتخلى عن الملك ؛ فدخل هذا القائد ميلانو عاصمة لمبارديه وأعلن انضمامها إلى النمسة ومع أن الجيش كان قادراً على مؤازرة أوجين إلا أن خيانة القادة وخور عزيمتهم مكنتا بلجارد من اكتساب الوقت اللازم لإنزال الضربة القاضية ، وبعد أن قبض على القادة ألقاهم فى السجن .

ومع كل هذا فإن الوطنيين لم ييأسوا مادام نابليون فى جزيرة ألبة ، وظلوا يعلقون آمالا على عودته للحكم ، وسعيه لإعادة استقلال إيطالية ، وأخذوا يتصلون به سراً ويعدون العدة لمساعدته

عند الحاجة . وكان ثم قائد آخر من قادة نابليون يسعى لطلب ود الطليان ، ألا وهو المارشال مورات أحد مارشالية نابليون الذين أنجبتهم الحروب الناشبة بعد الثورة الإفرنسية وقد نصبه نابليون ملكا على نابولى ، كما نصب أوجين بوهارنه نائباً للملك فى إيطالية . ولما رأى نابليون أن مورات يدبر الدسائس ليستقل بمملكته فكر فى أن ينبذه وأن يتفق مع آل بوربون ملوك نابولى القدماء إذا رضوا بأن يسيروا تحت رايته ، وكان مورات يعلم أنه إذا ما قضى على نابليون فلن يوافق الحلفاء على بقائه ، فلذلك رأى أن أحسن خطة يسلكها هى أن يجعل نفسه بطلا إيطالياً ليظفر برضاء الإيطاليين ، فراح يدبر الدسائس مع الحلفاء فعقد معاهدة سرية مع النمسة ، وعدته فيها بأن تعطيه نابولى وجزءاً من دويلات الكنيسة على أن يعترف بحقوق النمسة فى لمبارديه . وبينما كانت النمسة تسعى سراً لقلبه كان مورات قد اتصل بأوجين وحثه على رسم خطة مشتركة للدفاع ضد الحلفاء ، بيد أن أوجين لم يوافق على خيانة البابا فى روما ، ولما سقط نابليون واحتل النمسويون لمبارديه أصبح مورات فى موقف حرج ، ورغم أن الإنجليز كانوا يريدون التمسك بنصوص المعاهدة لضمان حقوق مورات فإن النمسة أرادت إعادة حقوق الملوك والأمراء المنفيين ، فاستفاد مورات من اختلاف الرأى ، وتقرب من الأحرار الطليان ، ووافق على عدة قوانين إصلاحية كان قد أجلها سابقاً ، واتصل بنابليون ولما فر

هذا من جزيرة ألبه رأى مورات أن الفرصة قد حانت فأعلن الحرب على النمسة ، وتقدم بجيشه نحو الشمال ، وأعلن استقلال إيطالية ، وضم حوله الطليان ، وقد سارع فاحتل إيالتى الرومانى والمـارك ، وبعد أن انتصر على النمسويين فى (سيزينه) تقدم فى إيالتى (بولونيه ومودينه) مع أنه لو توجه نحو ميلانو لـكان فى وسعه أن يحطم قوات النمسويين لو لم يصغ لنصائح الإنجليز الذين خانوه . فأخذ بعد ذلك يخسر المعارك ، وحاول عبثاً استفزاز حمية النابوليين والصقليين ليلتفوا حوله ، ولما رأى أنه قد فقد كل رجاء سـلم سيفه للإنجليز وأضاع الطليان بذلك أملهم الأخير فى الاستقلال .

وعلى أثر انتصار الحلفاء على نابليون فى معركة (وترلو) فإنهم حنثوا بوعودهم ، إذ بت مؤتمر فينا فى مصير إيطالية من دون أن يكترث للعهود التى قطعها قادة الحلفاء للطليان أثنـاء الحركات ضد نابليون ، وكشف رجال السياسة القناع عن وجوههم ، حتى أن المندوب البريطانى فى مؤتمر فينا قال للوفد اللمباردى إن تجربة الحـكومات الدستورية قد فشلت ، ولم تكن إيطالية فى نظر المفاوضين فى مؤتمر فينا سـوى أداة للتوازن السياسى ، فأمست غنيمة توزع على الملوك والأمراء . والأغرب من كل ذلك أن الحلفاء لم يكونوا متحدى الرأى فى موضوع تجزئة إيطالية

وكيفيتها ، فانجلترة وروسية لم ترضيا بأن تصبح إيطالية إقطاعاً للنمسة ، وكانتا تميلان إلى إقصاء النمسة عن إيطالية إقصاء تاماً ، ولما كانت روسية تطمح فى الحصول على ممتلكات أخرى فى بولندة فإنها غضت النظر أخيراً عن مطالب النمسة فى إيطالية .

أسفرت نتائج مؤتمر فينا عن تملك النمسة (لمبارديه وفنيسيه وفالينتنه) واحتفظ البابا بممتلكاته فى إيطالية المركزية ؛ أما بيمونته فإنها طالبت بإلحاق لمبارديه بها ، إلا أنها لم توفق ولكنها جزاء لخدماتها قد صححت حدودها ، وألحق بها قسم من إيالة صافويه التى كان الفرنسيون قد ضموها إلى فرنسة عقيب الثورة ، وضمت جنوه أيضاً ، وهكذا خرجت هذه الدولة أقوى مما كانت عليه قبل حروب نابليون . أما فى الأنحاء الأخرى فقد عاد الأمراء إلى ممتلكاتهم ، إلا أن النمسة أدخلت هؤلاء تحت نفوذها بعقد معاهدات مع أمراء طوسكانه وموديته وبارمه ، وأقامت حاميات نمسوية فى قلاعهم .

أما الملك فرديناند البوربونى فقد عاد إلى نابولى قاعدة ملكه وضم إلى ملكه جزيرة صقلية أيضاً ، وتعهد للنمسة فى معاهدة سرية بأن لا يعقد حلفاً مع أية دولة أخرى ، ولا يمنح لرعيته أكثر من الحقوق الممنوحة إلى لمبارديه وفنيسيه . وعلى الرغم من هذه النتائج المحزنة فإن الأحرار الطليان لم يقطعوا رجاءهم فى استقلال إيطالية ؛ وقد رأينا كيف أنهم فى فترة من الزمن يعلقون آمالا على مورات

فى تحقيق هذا الرجاء ؛ وحين انسحب هذا من الميدان فإنهم وجهوا أنظارهم نحو الأسرة الملكية فى بيمونته التى تتبوأ العرش فى تورينو . وكان ملكها الأمير الوحيد الذى ينحدر من أصل إيطالى من بين أمراء إيطالية . فراح الوطنيون يحلمون فى تأسيس دولة إيطالية فى الشمال تجمع بين بيمونته ولمبارديه وإيالات الرومانى ، ولم يفكر هؤلاء وقتئذ فى الوحدة الإيطالية الشاملة ، وإنما كان البعض منهم يرى أن الوقت الذى يتألف منه اتحاد إيطالى من الدول الإيطالية الثلاث : دولة إيطالية فى الشمال ودولة البابا فى الوسط ، ودولة نابولى فى الجنوب ، سيأتى فيما بعد .

نتائج مؤتمر فينا

لقد جزأ مؤتمر فينا إيطالية إلى ثمانية أجزاء وهى : مملكة بيمونته ، والإيالات النمسوية فى الشمال ، ودويلات الكنيسة ودوقيات طوسكانه ومودينه وبارمه ولوكا فى الوسط ، ومملكة نابولى وصقلية فى الجنوب . وقدأعطيت (بارمه) إلى الأميرة النمسوية (مارى لويز) أرملة نابليون ، وأعطيت (لوكا) إلى الأميرة مارى لويز البوربونية — وكانت تحكم (بارمه) قبل الثورة الإفرنسية . أما الدويلات الأخرى فقد أعيدت إلى أصحابها القدماء باستثناء فنيسيه وجنوه .

ولما عاد الملك فيكتور عمانوئل إلى عاصمة مملكته فى تورينو

استقبله شعبه بحماسة ، ومع أنه كان يتصف بخلق نبيل وكان طيب القلب حسن النية ، إلا أنه كان يكره كل تجدد ، ويعتبر كل حركة إصلاحية بذرة من بذور الثورة التى كان هو عدوها الألد ، ولذلك فإنه قضى على كل ما خلفته الثورة من أثر برفض جميع القوانين التى وضعت حينما كان منفياً عن البلاد ، ولم يعترف فضلا عن ذلك بأى موظف لم يكن مسجلا فى سجل الموظفين قبل خروجه من بلاده ، ولكنه حين لقى مقاومة سلبية من شعبه اضطر إلى التساهل وإغماض العين عن بعض القوانين ، والموافقة على بعض الاصطلاحات ، وأسس مجلس الإيالات ، واحتفظ ببعض الموظفين من العهد الإفرنسى ، وأدخل (بروسبير وبالبو) فى الوزارة ، وكان هذا الوزير من الإداريين القديرين ، فأصبح من المتوقع القيام بإصلاحات جديدة . ولكن عودة اليسوعيين أثارت انتقادات مرة ضد الحكومة ، لأنها بذلك استمرت على الجمع بين مساوئ العهد القديم كالاعتساف فى الحكم وسوء الشرطة السياسية ، وبين نقائص الحكم الإفرنسى الجديد كالمركزية فى الحكم .

أما فى لمبارديه وفينسيه فقد فرح أكثر الناس بعودة النمسويين ظناً منهم بأن النمسويين سيؤلفون منها مملكة وسيقيمون مجالس إدارية قد تنقلب فى المستقبل إلى مجالس تمثيلية . أما القانون الجديد فسيسن ملائما لسجايا الطليان وعاداتهم كما وعد مترينخ ، بيد أنه سرعان ما رأى اللمبارديون أن كل هذه الوعود لم تتعد

حدود القول ، فأصبح القانون النمسوى نافذاً ، وأسندت المناصب العالية إلى النمسويين والتيروليين ، وساءت الأحوال ، وفشا الجهل حتى أن إمبراطور النمسة صرح بأنه لا يرغب فى أناس متعلمين ، وإنما يريد رعايا صادقين ومطيعين . وحدث عن خشونة النمسويين ووقاحتهم أمور ، فكشف كل ذلك الستار عن نيات الحكومة الجديدة نحو رعاياها الطليان .

أما فى طوسكانه فكانت حركة الارتجاع خفيفة الوطأة ، إذ لم يحدث تغيير ما فى المؤسسات المدنية التى أنشأها نابليون بدلا من نظامها اللامركزى ، وقد أدرك أولو الأمر فى هذه الإمارة ما طرأ على العالم من تطور وتحرر ، حتى قيل إن الدوق كان على استعداد لقبول مجلس منتخب على أن يحتفظ لنفسه بحق تصديق القوانين ورفضها ، ثم أعيدت بعض أملاك الرهبان إلا أنه لم يسمح مطلقاً بعودة اليسوعيين كما وقع فى لمبارديه .

وفى روما عاد (كونسالفى) ممثل البابا فى مؤتمر فينا ظافراً فى مهمته ، فتولى رئاسة الحكومة ، وكان مقتنعاً بأهمية التطورات التى طرأت على العالم ، وميالا إلى الأخذ بالإصلاحات ، فأراد أن يقوى الدولة التى أنقذها بإدارة لا مركزية وإصلاحات معتدلة ، ورغب فى أن تحكم الدويلات البابوية حكما صالحا وأن يرى أهلها مرفهين ، وصرح أيضاً بأن على البابوية أن تعترف بالعادات والأفكار الحديثة والآراء الجديدة التى أحدثها علم الاقتصاد

السياسى وبثها ، وكان يطمح إلى إيجاد إدارة تتبع البابا مباشرة بعيدة عن سيطرة المطارنه والأهلين معاً ، ومع ذلك فإنه لقى معارضة شديدة حينما حاول إصلاح القانون وتشجيع التعليم .

أما فى نابولى فقد تظاهر الملك فرديناند بأنه أكثر أخذاً بمبادئ الحرية من مورات ، وتأهب لنشر بيان يعد فيه الناس بالدستور الجديد ، ولكنه حين علم بسقوط خصمه سرعان ما تنصل من وعوده ، وعاد المهاجرون ورجال الأكليروس يطالبون بحقوقهم ، ثم استلم المهاجرون أملاكهم ولقيت صقليه التى التجأ إليها الملك أيام نكبته كل جحود منه فيما بعد ؛ وكانت الجزيرة تعتز بدستور — يمنح الأشراف بعض الحقوق — حصلت عليه بعد تعتز جدال عنيف وبتدخل قائد الحامية الإنجليزية . ورغم أن الملك أقسم يمينا لمحافظة على الحريات الممنوحة وكفلت انجلترة ذلك أدبياً ، فإنه لم يرتح إلى وجود إدارة دستورية بالقرب من مملكته ، خشية سريان مبادئ هذه الحريات ، وعملا بالمعاهدة التى عقدها مع فينا فإنه أوقف الدستور الصقلى وألحق صقلية بمملكة نابولى وألغى الجيش والراية الصقليين .

ذكرنا فيما تقدم خلاصة ما أصاب الدول الإيطالية من تبدلات بعد مؤتمر فينا . وعلى الرغم من أن هذه التبدلات تحمل فى باطنها الآراء الرجعية إلا أنها لم تكن شديدة القسوة . وإذا استثنينا فرديناند ملك نابولى فإن الأمراء كانوا بصورة عامة صالحين وذوى

رغبات حسنة . ومع أنهم كانوا بعيدين عن فهم روح العصر الجديد فإن نفوسهم كانت تتوق إلى رؤية رعاياهم سعداء ، وعليه فإن الإدارة فى حكومات المقاطعات قد تدرجت من حسن إلى أحسن ، ومع ذلك فقد ظل رجال تلك التبدلات يعتبرون القانون الإفرنسى من العوامل الهدامة لدعائم الأخلاق التى تستند إليها الهيئة الاجتماعية ، ولاح لهم أن القانون المذكور قدأضعف الدين وأضر بروابط الأسرة ، فراحوا يطالبون ملحين بفسخ الزواج المدنى وإلغاء قانون الطلاق وترك أمر التعليم إلى الإكليروس . فأعدت العدة لأن يكون التعليم الإجبارى بموجب تعاليم الكثلكة ونظراً إلى الريبة فيما تبثه الجامعات فإنها روقبت من قبل الشرطة . واتخذ الأمراء دوق (مودينه) قدوة لهم فى أعمالهم وقد كان هذا الأمير فى الحقيقة من أفظع المستبدين فى إيطالية الحديثة ، يخشى النتائج السياسية التى قد تنشأ من التعليم ، واعتبر المدرس الذى يبث فى تلاميذه المبادئ التقدمية الحرة من أكبر المذنبين وطالما صرح « بأن الأحرار آثمون ، علينا أن ندعو لهم أن يتوبوا وأن نجازي غير التائبين منهم » .

بيد أنه مهما أُعد للحركة الرجعية من عدة فإنه كان مقدراً لها أن تصطدم بجميع المستنيرين من رجال الرقى والتقدم فى الأمة . أما طبقة التجار التى أدركت ما بلغت قوتها فى العهد الإفرنسى فقد رأت ما أصاب تجارتها من فشل من جراء الكوس الجمركية

التى وضعت بين دولة ودولة أخرى . أما الجيش فقد كان متشبعاً بالأفكار الديموقراطية ، وكان دائم الانجذاب إلى طريقة نابليون ، حانقا من جراء ضياع الحريات الاجتماعية والترقيات التى نالها الضباط الذين عادوا من المنفى ، وضاق ذرعاً بسيطرة النمساويين الذين كثيراً ما كسروهم فى المعارك ، فأخذت النظريات الحرة ومبادئ الحكم الدستورى تنتشر ؛ وكان عملاء روسية فى المدة القصيرة التى تظاهر بها الإسكندر قيصر روسية بميله إلى الآراء الحرة يشجعون المستنيرين على بث تلك النظريات . أما السياح الإنجليز فكانوا ينقلون معهم مبادئ الحكم الحر فأخذ الناس يتتبعون بكل دقة أخبار المجالس النيابية فى انجلترة وفرنسة وحركة الهيتاريا (Hetaria) فى بلاد اليونان .

وهكذا فإن حياة عقلية جديدة كثيرة النشاط قد دبت فى الشمال وفى الوسط ، وأخذ الجيل الحديث يقرأ مؤلفات (الفيرى[١] وفوسوكولو[٢]) وما ترجم من الكتب الواردة من ألمانية وانجلترة وأخذ يتطلع إلى البعث القومى المنشود ويتناقش فيه على قدر ما تسمح به مراقبة السلطة ، ذلك كله دون أن

---

(١) الفيرى — أول شاعر إيطالى فى المأساة .

(٢) فوسوكولو — كاتب وشاعر إيطالى .

يكون له رأى ثابت فى كنه هذا البعث وحقيقته ، وأصبح الأحرار البائسون والموظفون الذين فقدوا وظائفهم والضباط الذين أضاعوا مناصبهم وجنود الجيش الكبير (جيش نابليون) ينتظرون بفارغ الصبر عودة أيام الحرية التى بزغ فجرها زمن نابليون ، وهكذا الأول مرة منذ زمن حزب جلفى (Guelfe)[1] ظهر تشكيل جديد بزعامة جمعية الكاربوناري أشبه ما يكون بالأحزاب القومية .

---

(١) حزب جلفى — الحزب الإيطالى القديم الذى يؤازر البابا ويعارض حزب جيبلين وهو الحزب الذى يناصر الإمبراطور .

الفصل الثانى

جمعية الكاربوناري

كانت جمعية الكاربوناري تشبه فى قواعدها ومراسمها تشكيلات الماسونية فى إيطالية إلى حد ما ، إلا أنها كانت ذات أهداف سياسية معينة ، وكان أعضاء الماسونية كثيرين وذوى نفوذ فى إيطالية الجنوبية ، وتأسست جمعية الكاربوناري من الجمهوريين الذين التجأوا إلى منطقة جبال البروزه وكابريه لينجوا بأنفسهم وليكونوا بمأمن من يوسف بونابارت (أخى نابليون) وقد انضم إليهم رجال آخرون ، وكان الدافع الوحيد الذى دفعهم إلى ذلك كرههم للحكم الإفرنسى ، ولكن يصعب القول بأنهم كانوا جمهوريين أو ملكيين ، وقد شجعهم فرديناند ملك نابولى واتخذهم حلفاء له ضد الإفرنسيين ، وسمى مورات فى السنوات الأخيرة لاستمالتهم إلى جانبه فلم يفلح وعجلت معارضتهم إياه بسقوطه .

ولما عاد فرديناند إلى نابولى كان أول عمل قام به أن اضطهد الذين ساعدوه على العودة إلى عرشه . فتولى وزيره (كانوزا) رعاية الكلديرارى — الجمعية المخاصمة للاحرار — وقد بلغ اضطهادها

إياهم درجة حملت النمسة رغبة منها فى الاحتفاظ بحكومة متساهلة على الإيعاز إلى فرديناند بأن يحل تلك الجمعية . وانتشر الكاربوناري فى جميع أنحاء إيطالية الجنوبية ، ومما ساعد على إيجاد أنصار لها من مختلف الأحزاب تعاليمها الدموقراطية الاشتراكية ونزعتها المسيحية . وقد اتخذ أعضاء الكاربوناري لهم مثلا أعلى ، وكان زعماؤهم ينشدون بعث الهيئة الاجتماعية بعثاً جديداً ، وبث مذاهب الاشتراكية جامعين بين التصوف المسيحى وبين فلسفة القرن الثامن عشر ، فادعوا بأن المسيح كان أول ضحية من ضحايا الطغاة ، وكانت شارة الصليب تتوج مجالس الكاربوناري ، وكانوا خاضعين للأوامر الدينية والبابا . ولاح لهم فى وقت ما أن يقيموا كنيسة كاثوليكية مجددة يتولون هم قيادتها ، وكانت تعاليم منهجهم تتطلب منهم التخلق بالأخلاق الشديدة الصلبة ، حتى إذا صدر من عضو ما أعمال تخالف الأخلاق أو تخل بالشرف عوقب عقاباً صارماً وعليه ، فإنه لا يجوز لأى شخص أن ينتمى إلى الجمعية إذا كان سيء السمعة ، وكان من الصعب معرفة اتجاههم السياسى ، على أنه لا شك فى إخلاصهم للحرية وكرههم الشديد للاستبداد . ويلوح من شرح آراء زعمائهم أنهم كانوا يرمون إلى الجمع بين الإمبراطورية الرومانية ، وشبه الاشتراكية الدموقراطية التى بشر بها جان جاك روسو ، فتراهم يحلمون تارة باتحاد إيطالى برئاسة البابا ويتوقون تارة أخرى إلى الوحدة الإيطالية ، على أن تكون روما عاصمة لها .

وكان يدير هذه التشيكلات المتنوعة محفل أعلى اتخذ روما قاعدة له ، وكان لهذه التشيكلات هيئات عدلية تفرض عقوباتها التى تصل إلى حد الموت أحياناً ، وكانت قوانينها المستقلة وعقوباتها الصارمة أدعى إلى ثقة الشعب واحترامه من قوانين الحكومة التى لا تحكم إلا بالظلم والاستبداد . فانتشر (الكاربوناريون) من نابولى إلى الشمال وأخذ هؤلاء بالاشتراك مع فرسان جلنى وأعضاء حزب أدلفى Adelfi فى بيمونته وبارمه وحزب الاتحاد اللمبارديى يدبرون المؤامرة الكبيرة التى هيأت ثورة ١٨٢٠ — ١٨٢١ . ولقد تجلت بوادر هذه الحالة الروحية الجديدة لأول مرة فى لمبارديه فى مظهر اجتماعى وأدبى ، فقد أخذ استياء الشعب يزداد فى الإيالات الخاضعة للنمسة ، ولكنه لم يتعد المظهر السلبى ، واقتصر العمل على الحزب المؤلف من الأشراف والبورجوازيين لا سيما فى ميلانو وفى (برسيه) . وكان (كنفالونييرى — Canfalonieri) رئيس هذا الحزب يجتمع بأحرار فرنسة وانجلترة . وتسربت الآداب الرومانتيكية فى إيطالية فأسس الحزب مجموعة (كونجلياتورة — Congliatora) بإدارة الشاعر المحبوب (سيلفيو بلّيكو) ثم اندفع الحزب بعد ذلك إلى المؤامرة حتى نضجت واختمرت فى الجنوب لا سيما فى نابولى لأن حكم فرديناند فيها كان فاسداً استبدادياً . ومع أن القوانين فيها قد اقتبست أحكامها من المجلة الإفرنسية ، إلا أنها كانت تنفذ تنفيذاً

لا يتفق والنصوص ، وكان الناس لا يعتمدون على الحكومة ولا يثقون بها ، وشجعهم على ذلك أن فرديناند كثيراً ما كان ينقض وعوده ؛ ثم بدأ القرويون يتذمرون من ظلم الأشراف ، وقد أهين الشرف القومى ببقاء جيش الاحتلال النمسوى فى البلد إلى تاريخ ١٨١٧ ، وغدا القضاء ألعوبة بيد الأغنياء ، وزاد تذمر الناس واستياؤهم بما أصاب الناس من فقر ؛ وأدى السلم إلى فتح أبواب إيطالية أمام التجارة الأوربية ، فزاحمت البضائع الأجنبية المصنوعات الوطنية فضعفت صناعة الأقطان والمشروبات ، فضلا عما أصاب تجارة الحبوب والزيت من الكساد من جراء تدخل الحكومة ، وانتشر القحط وعمت الأمراض فى البلاد ، وأخذ الناس يلعنون الحكومة ويصبون عليها غضبهم . وطبيعى وقد بلغت الحال إلى ما وصفنا بسبب ضعف الحكومة وفسادها مما أدى إلى استياء الناس وتذمرهم أن تنشط المؤامرات ، وأن يوشك الكاربوناريون أن يسيطروا على البلاد إذ أخذ المستاءون على اختلاف طبقاتهم ينضمون إليهم ، وكان أفراد الجيش من أول المنضمين إلى الكاربوناري لحرمانهم الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها ، ولما شاهدوه من محاباة للمنفيين الذين عادوا إليه . وانضم إليهم القضاة مكرهين وبذلك أخذ عدد المنتمين إلى جمعية الكاربوناري يزداد يوماً فيوماً إلى أن بلغ عشرات الألوف ، حتى أن قوة المليشيا فى الإيالات التى يبلغ عددها خمسين ألفاً أصبحت فى قبضة

الكاربوناري ؛ وقوة الليشيا هذه قد نظمها ضابط كالابري يدعى (جيجليلمو بيه) Guiglieimo Pepe بغية قمع الشقاوة ، وبما أنه كان عضواً فى جمعية الكاربوناري فقد استعد لاستخدام هذه القوة فى الأغراض السياسية التى تعمل الجمعية فى سبيلها .

وكادت المؤامرة التى دبرها لاختطاف عاهل النمسة ومترنيخ[1] تنجح لو لم تحدث ثورة عسكرية . وأراد فتيان من ضباط الخيالة (موريللى وسالفانى) أن يقلدا الثورة التى حدثت فى أسبانية ، ففرا مع كتيبة خيالة من نولا ، وسارا نحو (آفلّينو) وأعلنا تمردهما مع قوتهما مطالبين بملك ودستور . وسرت الثورة فى خلال ثمان وأربعين ساعة إلى (كوتبينا ناتاو بازيليكاتا) ، والتحقت عدة كتائب مع بيه إلى صفوف الثائرين ، وكان بيه على وشك أن يقوم بالهجوم لو لم يسارع الملك إلى منح الدستور . ولما كانت جمعية الكاربوناري لا تثق بالملك ، فقد طلبت إليه أن يمنح البلاد الدستور الأسبانى نفسه ، ذلك الدستور الذى ينص على تأليف مجلس واحد يراقب أعمال الحكومة ويحاسبها على الصغيرة والكبيرة ، ففعل الملك مضطراً وقد رحب الشعب بهذا الدستور وهلل لابن الملك (فرنسوا) الذى اندمج فى الحركة وتبناها بعد أن

---

(١) مترنيخ — رئيس حكومة النمسة فى حروب نابليون وقد أصبح بعد القضاء على نابليون الرجل المسيطر على سياسة أوربة مستفيداً من أحكام الحلف المقدس .

نودى به (وصياً) ، وقد أقسم أن يدافع عن الدستور بدمه . وصرح الملك بأنه سعيد إذْ استطاع أن يمنح ذلك فى حياته ، وأقسم بالإنجيل يمين الولاء للدستور ، وأقصى الوزراء القدماء عن العمل وعين بديلا عنهم وزراء من عهد مورات كانوا من الأحرار إلى حد ما ، ولكن هؤلاء الوزراء لم يكونوا ممن ألفوا شعور الشعب فلم يثقوا بالكاربوناريين المتشبعين بالأفكار الدموقراطية أكثر منهم وكان (بيه) الوزير الوحيد من بينهم يمثل الحزب الذى قام بالثورة ، وظل الكاربوناريون يؤلفون حكومة داخل حكومة ويسيطرون على قوة الميليشيا ، وعلى الهيئات المحلية ، فلا تستطيع المحاكم أن تتخذ الإجراءات ضدهم مما حدا ببيه نفسه إلى التفكير فى إلغاء تشكيلاتهم بالقوة .

أما فى صقلية فقد ازداد الموقف الحرج تأزما بسبب الثورة واشتد سخط الصقليين لضياع استقلالهم ولخيانة الملك وخضوعه المشين للنمسة ، وكان لذهاب الحامية الإنجليزية تأثير مباشر فى هبوط العملة النقدية ، وعلى الرغم من هبوط الأسعار فإن الضرويين لم يظفروا بتخفيض فى الضرائب ، واشتدت الفاقة الناشبة من سوء الحالة الاقتصادية ، وبلغ من شدة سخط الناس على سيطرة نابولى أن تنامى الناس اختلافاتهم ، واختفت الفروق العميقة التى كانت تبعد الطبقة المتوسطة عن الدهماء فى القسم الأعظم من الجزيرة . وكان الاستقلال عند الأشراف يعنى عودة عهد الإقطاع ، والحصانة

تجاه القوانين ، واستغلال الأرض بإرهاق الفلاحين ، بينما كان الدهماء فى المدن يفهمون من كلمة الاستقلال النهب ولذلك فإنه لم يكن بين الناس سوى أفراد قلائل من أحرار سنة ١٨١٢ يرون أن عودة الحكم النيابى هى السبيل إلى الرقى والإصلاح .

وشاع خبر الثورة فى (باليرمو) عاصمة صقلية فى يوم عيدها الدينى ، فتقبل الجمهور منح الدستور الأسبانى بحماسة ، حتى ظن البعض أن النابوليين والصقليين سوف ينسون أحقادهم ويؤلفون جبهة متحدة للكفاح ضد الاستبداد ، غير أن الاشراف كانوا يرون فى الدستور الأسبانى ضياعا لنفوذهم ، فضلا عن أن البعض من الأحرار قد انضم إليهم ، مطالبا بالانفصال عن نابولى أو منح الحكم الذاتى ، وهكذا فإن أمل المتفائلين بالتفاهم بين نابولى وصقلية قد خاب بإعلان الاستقلال والعودة إلى دستور سنة ١٨١٢ ، وثار الدهماء وهدموا دار القائد وضربوا دوائر الجباية ، وأصبحوا أداة بيد الأشراف . وأقنع هؤلاء نائب الملك بالموافقة على تسليح الدهماء ، وأوشك الجنود أن يتضامنوا معهم إلا أن القادة خشوا العاقبة فحالوا دون ذلك ، وقد نشبت بين الجنود والدهماء معركة أسفرت عن خسارة الجند ، وفتحت على أثر ذلك أبواب السجون ، وانضم المجرمون إلى العامة ، وشرعوا ينهبون المدينة ويقتلون الناس على غير هدى ، حتى اضطر الأشراف إلى الاتفاق مع رؤساء النقابات الصناعية ليحولوا دون النهب ، إلا أن مساعيهم ذهبت

أدراج الرياح ، ولم يستطيعوا أن يعيدوا الهدوء إلا بعد أن جندوا من المجرمين والعاطلين سرايا ، فأصبحت ناصية الحكم بيد عصبة من الأشراف والفوضويين ، وخشى الأحرار من جهة أن يصبح استقلال صقلية ألعوبة بيد الدول الأجنبية ، وأن يظل المجلس النيابى تحت سيطرة الأشراف ، ورأوا من جهة أخرى أن الانضمام إلى نابولى من شأنه أن يجعل نواب صقليه فى مجلس نابولى أقلية . من أجل ذلك حبذوا أن تقوم حكومة من الأحرار بالإصلاحات التى سبق أن رفضها الملك ، بينما ظلت مسينا أكبر مدينة فى شرق الجزيرة موالية لنابولى ، وارتأى الموظفون والطبقة الوسطى فى وسط الجزيرة وفى غربها رأى الأحرار فى عاصمتها ، وأدى هذا التباين فى الآراء إلى أن تصبح الجزيرة ساحة قتال دام بين أنصار الدستور الأسبانى وبين الدهماء الذين راحوا يدافعون بحرارة عن دستور سنة ١٨١٢ بسبب كرههم الشديد للأشراف وميلهم نحو أهل باليرمو .

أدت هذه الحوادث إلى هياج وسخط فى نابولى ، ولاح للأحرار أن الحركة الرجعية فى صقلية قد شجعها الأشراف ، ولذلك طالبوا باتخاذ التدابير اللازمة لقمع الثورة ولكن الحكومة ترددت فى الأمر ، وأراد الملك أن يصطاد فى الماء العكر فوعد الصقليين بدستور ١٨١٢ ، وشجع هو ووصيه الأشراف على المطالبة بالانفصال ، ثم منح الوصى بموافقة الوزراء أهل الجزيرة حق تأسيس

مجلس نيابى على شريطة أن يقبله أهل الجزيرة بالإجماع ، وفى الوقت نفسه أُوفد أخو الوزير (بسه) على رأس سبعة آلاف جندى إلى الجزيرة لإخضاع الانفصاليين ولمساعدة الحكومة على التخلص من وعدها . ولقيت القوة الموفدة مقاومة شديدة ، حتى تحرج موقفها لو لم يسأم القابضون على زمام الثورة من كلا الفريقين الفوضى والدمار اللذين أصابا الجزيرة ، فطلب أحد الأشراف من الشعب الخضوع ، وقبل طلبات القائد بتعديل على أن تبقى الجزيرة تابعة للتاج ، وأن تقبل الدستور الأسبانى . وبهذا خضعت الجزيرة ولكن عين مترنيخ الداهية النمسوى لم تنم ؛ فرأى فى ثورة نابولى هدما للبناء الذى شيده وخروجا على السياسة التى وضعها بعد مؤتمر فينا ، ولذلك عقد النية على أن يخنق الدستور الجديد قبل أن يشب . وبلغت الحماسة فى النابوليين من جراء انتصارهم درجة لم يروا معها الخطر الذى كان يتهددهم ، فدفعوا الضرائب قبل آجالها وانخرط المتحمسون منهم فى سلك المليشيا .

واجتمع المجلس فى ١ تشرين الأول فوعد الملك المرة الثانية بأن يحترم الدستور وكانت أكثرية المجلس من المعتدلين الذين انتخبوا من الطبقة الوسطى ومن ذوى المهن الحرة ، وكانت رؤوس هؤلاء مملوءة بالأفكار الإصلاحية ، إلا أنهم كانوا محرومين من التجارب ويرجحون الخطب على العمل ، ولم يفكر أحد منهم فى تهيئة البلاد لصد الغزو الخارجى . أما الكاربوناريون فيلوح أنهم

اعتزموا إما التهديد وإما أن يقوموا هم مقام البرلمان ، فاستيقظ الحزب الرجعى من ذهوله وتحفز للعمل ، وقد اعتاد الناس أن لا يثقوا بكلام الملك . وكانت هناك عدة أسباب تدل على أن الملك يتآمر ، وأن الوزارة أصبحت ألعوبة فى يده . وكانت باكورة أعمال المجلس أن رفض التصديق على معاهدة القائد بيه التى تنظم أمور صقلية ، والتى تنص على أن يقدم الصقليون عشرة آلاف رجل للدفاع المشترك ، وعلى الرغم من احتجاج القائد على هذا الرفض ، فإن الوزارة قد ارتاحت إليه ، لأنه ساعدها على أن تتملص من وعدها فعينت قائداً آخر وُفق فى أن يقبض على ناصية الجزيرة بالتدابير الصارمة . وكان من أثر ذلك أن اغتاظ الصقليون وتأهبوا لانتهاز الفرص وأخذ الكاربوناريون فى الجزيرة يتحفزون للثورة ويستعدون لها مما اضطر نابولى إلى إبقاء قوة حامية تتألف من سبعة آلاف من خيرة جنودها فى الجزيرة .

وراح المجلس يهاجم الوزارة حتى اضطرت إلى أن تلقى بنفسها فى أحضان الملك ، وكان الملك يعلم أن النمسة لا ترضى أبدا بالثورة وبالنظم الديمقراطية ، فلذلك حدث حين استدعاء ملوك الحلف المقدس إلى (تروباو) لحضور الاجتماع المؤجل فى لايباخ أن طلب من المجلس الموافقة على ذهابه وهدده بالحل إن هو لم يوافق . فلم يبق أمام المجلس تجاه هذا التهديد إلا أن يختار أحد الأمرين : فإما أن يطلب مساعدة فرنسة وتهدئة الحلفاء بموافقتهم على تأسيس

مجلس الأعيان وتوسيع سلطة الملك ، وإما أن يخلع الملك وينصب ابنه محله وبذلك يعلن الخصومة على النمسة . فظل المجلس مترددا بين الأمرين ، ومع أن الوزير بيه صوت للأمر الثانى فإن الكاربوناريين لم يكونوا يريدون أن يغيروا شيئا فى أحكام الدستور . أما الملك فإنه بعد وصوله إلى تروباو رفع القناع عن وجهه ، وأخبر المجلس أن الحلفاء قد قرروا إلغاء الدستور ، وأنه نزل عند رغبتهم وأيد ذلك ، واستطاع مترينخ أن يحصل على موافقة الدول على إرسال قوة نمسوية لتأييد الحكم المطلق ، ولما اطلع المجلس على ذلك اعتزم المقاومة واستعد للدفاع بكل قوته ، وكان لدى الحكومة حينئذ أربعون ألفا من الجند النظاميين ومثل ذلك من قوة المليشيا . وكان النابوليون يجهلون أن بيمونته كانت على وشك أن تثور ، وأن فكرة الثورة قد اختمرت فى إيالات الرومانى والمارك ، وبذلك كانت جميع الظواهر تدل على أن الكفة الراجحة بجانب النابوليين ، لاسيما إذا أحسنوا المقاومة . وكان الشعب يريد الحرب لكن الأمور لم تسر وفق المرغوب فيه إذ كان الوصى (ابن الملك) يلعب على الحبلين ، وقد شجع وهن الحكومة الحزب الرجعى على العمل ، وكان الجيش لا يثق بقادته ولم ترسم فى البدء خطة للدفاع .

أما النمسويون فاجتازوا نهر (بو) فى نهاية كانون الثانى ، وتقدموا رويدا رويدا نحو الجنوب وكانت قوة نابولى تتفاوت بين

(٤٠٠٠٠ — ٥٠٠٠٠) من النظاميين والليشيا ، فانقسم الجيش إلى قسمين القسم الأول بقيادة (كرّسكوسا) والثانى بقيادة (بيـه) وكانت الخطة المثلى أن يظل القسمان فى حالة الدفاع . ولما علم (بيه) بأن (كرّسكوسا) أخذ يفاوض العدو بالانفاق مع وزير الحربية ترك خطة الدفاع وهجم على الجيش النمسوى ، وبعد معركة استمرت سبع ساعات اضطر إلى الانسحاب ، فتحطمت معنويات الجنود ، فأعلن الملك بأنه سيقتل كل من يقاوم ويصادر أملاكه ، فانتشر الذعر بين الصفوف وتشتت قوات الجيش ومالت قوات الحرس إلى جانب الملك . فاضطر المجلس إلى أن يترك الميدان ويلتجئ إلى رحمة الملك ، وهكذا دخل النمسويون نابولى فى ٢٣ مارت بدون خسائر .

نشبت الثورة فى بيمونته بعد اندحار جيش نابولى بثلاثة أيام . وكانت جميع قوات المحافظين قد تألبت دون مساعى (بروسبرو بالبو) فى الإصلاح ، وأمسى الجيش بيد الرجال الذين حاربوا النمسة فى معركة (أوسترليج) فظلوا يعتبرونها عدوة ، وأصبحوا يرون أنه على بيمونته أن تختار أحد الأمرين . إما الاحتلال النمسوى ، وإما عرش إيطالية . وانضم الكاربوناريون إلى المستائين وكان الملك فيكتور عمانوئيل يحقد على الحزب النمسوى ، الأمر الذى كان يزيد النار استعارا أضف إلى ذلك أن سفيره فى روسية (دى مستر) كان يدبر الدسائس فى بطرسبرج فى سبيل تأسيس مملكة فى شمال إيطالية

بحماية روسية . لم يخطئ أعضاء جمعية الكاربوناري كثيراً حينما فكروا فى أن يترأس الملك فيكتور عمانوئيل الحركة ويجمع حول رايته القوميين فى جميع أنحاء إيطالية . وكان المتآمرون يميلون إلى إنجاز الاصلاحات قبل القيام بالحركة ، ولذلك فإن أكثرهم قرروا المطالبة بالدستور الأسبانى ، ولكى يظفروا بعطف الملك على الحركة فكروا فى اشتراك ولى العهد الأمير شارل البرت فى مسعاهم . وقد نشأ هذا الأمير الفتى البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة فى باريس وانخرط فى الجيش الفرنسى ونال فيه مرتبة كونت الإمبراطورية ، وكان رجلا شجاعاً شغوفاً بالسلاح متكبراً ولكن تنقصه الحماسة ، وكان الأمير الوحيد الحائز عطف الأحرار وقد تظاهر بميله إلى الإصلاحات وحبه للاستقلال وتشجيعه للأحرار ، واتصل برجال الكاربوناري رغم نفرة البلاط من الآراء الحرة والأفكار الحديثة ، وقد ولدت فيه ثورة نابولى الرغبة فى قيادة الوطنيين وطرد النمسويين من إيطالية وتوسيع حدود بيمونته .

وكانت خطة المتآمرين تتلخص فيما يلى : — أولا — الحصول على الدستور الأسبانى مهما كلف الأمر ، ثانياً — سوق الجيش إلى الحدود حالا ، ثالثاً — ضم قواتهم إلى قوات الثوار فى ميلانو وبرسيه ، رابعاً — دحر الحاميات النمسوية فيهما ، خامساً — قطع طريق الانسحاب على النمسويين فى نابولى .

وكانوا واثقين أن جيش بيمونته ظافر لا محالة ، وأن اللمبارديين سيعقدون مجلساً تمثيلياً لتقرير الانضمام إلى بيمونته . ولما وقعت حادثة الاصطدام صدفة بين التلاميذ والجيش فى تورينو اشتد التوتر ، وفى شهر آذار سنة ١٨٢١ شاع خبر الاطلاع على مؤامرة الأحرار مما اضطرهم إلى الشروع فى العمل ، ولما كانوا يرغبون فى أن يساهم الأمير شارل البرت فى الثورة فقد اجتمع به زعماء المؤامرة ، والظاهر أنه وعدهم بالاشتراك فى العمل ، على شريطة ألا يتجه العمل نحو مخاصمة الملك ، ولكن سر المؤامرة لم يلبث يوماً واحداً بعد الاجتماع حتى أفشاه الأمير ، فأراد المتآمرون فى تورينو أن يرجئوا الشروع فى العمل ، بيد أن حامية (الكسندرية) التى كانت تجهل خيانة الأمير سارعت إلى الثورة ، وطالبت بالدستور الأسبانى ، ونادت بفيكتور عمانوئيل ملكا على إيطالية . وسار التلاميذ فى العاصمة فى مظاهرات يطالبون فيها بالدستور ، ورفض ضباط الحامية مقاومة المتمردين والمتظاهرين ، مما يحمل على الظن أن الحكومة نفسها كانت من أنصار الحركة ، واتضح فى الجلسة التى ترأسها الملك أن الملكة وحدها كانت تعارض فى منح امتياز للشعب ، أما الملك فعلى الرغم من وعده فى مؤتمر (لاياخ) بألا يتخلى عن سلطته المطلقة فإنه حين أنذرت الحامية العسكرية بإطلاق النار على المدينة إذا لم يمنح الدستور أراد تجنب الحرب الأهلية ، وأعلن تنزله عن العرش ولكن هذه

الحركة من جانبه اعتبرت ضربة موجهة للثائرين الذين كانوا قد أظهروا ولاءهم له ، كما أنهم أعلنوا للملأ حينئذ (أن الملك سيلبى نداء قلبه الإيطالى) ، وكان الملك قبل أن ينزل عن عرشه قد نصب الأمير شارل البرت وصياً إلى أن يصل أخوه (شارل فليكس) الملك الجديد الذى كان خارج إيطالية .

استقالت الوزارة وأصبح الأمير الفتى من دون معين ولم يكن ممن يستطيعون تحمل تبعة الحوادث الجسام . وقد كان مخلصاً للأسرة المالكة من جهة ومرتبطا بالمتآمرين من جهة أخرى . وكان أمامه قبل كل شيء واجب خطير هو إنقاذ العاصمة من الفوضى ، وإنقاذ البلادمن الاحتلال الأجنبى ، وكان يدرك أن جيش بيمونته لا يستطيع مقاتلة الجيش النمسوى . وعليه فقد تردد بادئ الأمر فى منح الدستور ، فأخذت الحامية تهدده ، وأشار عليه الأشراف بالقبول ، فأذعن ومنح الدستور الإسبانى مكرها . ويظهر أن مجرى الحوادث بعد ذلك قد حمسه إلى درجة راح معها يتحدث عن الاتحاد مع نابولى ، وعن الشرف القومى ، ولم يتردد فى إظهار عطفه على الوفد اللمبارد الذى طلب منه أن يتقدم بالجيش نحو لمبارديه . ولما بلّغه الملك الجديد فى إصرار وشدة أنه لا يعترف بأى امتياز منحه للشعب وأمره بعد ذلك بالمجيء إلى (نوفاره) هرب خلسة مع بعض رجال الحامية .

وكان أهل جنوة أيضا قد تحمسوا للثورة ، بيد أن فرار

الأمير شارل البرت جعل (كنفالونبيرى) وزير لمبارديه يتردد فى العمل ، ولم يشأ اللمبارديون أن يقدموا على الحركة قبل أن يجتاز جيش بيمونته الحدود إلى بلادهم ، وبقيت العاصمة ساكنة ، وأخذ الأشراف يوجسون شرا من الدستور الأسبانى . ولم تكن الوزارة الجديدة قادرة على بث الحماسة فى النفوس ، وحاول (سانتاروزا) ولعله الوزير المتحمس الوحيد من بين الوزراء أن يشجع الثورة بالهجوم وأخذ يقول : «انسوا الحزازات واركضوا نحو تسّينا (النهر الذى يفصل الحدود بين لمبارديه وبيمونته) ، فلمبارديه تنتظركم ولسوف تتحرك فرنسة » ، ولم يجد هذا القول نفعاً ، لأن الجنود فترت حماستهم ، وأخذت القطع العسكرية تنحاز إلى الجانب الملكى ، فأرادت الوزارة أن تنقذ الموقف بطلب وساطة روسية لتحول دون احتلال النمسة للبلاد . بيد أن الملك شارل فيلكس من جهة ، وحزب الأحرار فى الكسندريه من جهة أخرى لم يميلا إلى أى تفاهم ، وكان من أمرذلك أن اجتاز النمسويون نهر تسّينا ، وتقدمت قوات الدستور نحو نوفّاره ، ولم يخطر ببال هذه القوات أن القطعات الموالية للملك ستنضم إلى صفوف النمسويين لمقاتلتها . وهكذا تغلب الجيش النمسوى بالاشتراك مع قوات بيمونته الموالية على قوات الدستور بالقرب من نوفّاره ، ثم احتل النمسويون الكسندريه وجنوه . وبهذا فشلت الثورة فى الجنوب وفى الشمال .

وإذا كان النفور من آل بوربون ملوك نابولى ، والاستياء من الظلم والفاقة من أسباب الثورة والعوامل الدافعة إليها فى الجنوب ، فإن نشوبها فى الشمال يرجع إلى نزوع الأحرار لضم لمبارديه إلى بيمونته والقضاء على الحكم النمسوى ؛ وترجع أسباب فشل الثورة فى الجنوب إلى خيانة الملك والوصى وعزم الحلف الأوربى على قمع كل حركة تقوم ضد الحكم المطلق ؛ غير أن رؤساء الثورة أنفسهم لم يكونوا ذوى تجارب كافية ، ومع أن الكاربونا ربين كانوا مخلصين فى عملهم إلا أنهم سلموا القيادة إلى رجال لم يكونوا مؤمنين بنجاح الحركة ، وقد سيطروا على الحكومة لما شكوا فى إخلاصها ، وكانت الحزازات الشخصية تعمل عملها بينهم فى الخفاء ، ونخص بالذكر تلك الخصومة الشديدة بين بيّه وكرّسكوسا ، وذلك الاختلاف بين جمعية الكاربوناري وحزب مورات ، وإذا دلت الظواهر على أنهم يعملون لهدف واحد فإن الوقائع أظهرت أنهم يتحركون مختلفين .

أما فى الشمال فالأسرة المالكة التى يجب أن ترأس الحركة وهى أسرة قومية لم تكن قوية الإيمان بالفكرة ، ومع أن الأمير شارل ألبرت كان يعتنق فكرة الوحدة إلا أنه كان فاقد الحماسة ، مترددا بين الإخلاص للأسرة المالكة وبين العمل المجرد للفكرة . وكان الأشراف الحديثو النشأة يهدفون إلى تأسيس مجلس الأعيان ، كما أن أشراف لمبارديه كانوا يطمحون إلى أن ينالوا بواسطة

بيمونته الامتيازات القديمة التى رفضت النمسة أن تمنحها إياهم . وأما الجيش الذى علمته حروب نابليون أن يتخذ نفسه حكما فى سياسة الأمة فإنه لم يكن ليعير أى اهتمام بالشعب . وأما رؤساء الثورة فى الشمال فمع أنهم يؤمنون بالوحدة إلا أنهم كانوا رجال قول لا رجال عمل ، وكانوا متحمسين للحركة والاستقلال ، إلا أنه كان ينقصهم إصابة الرأى والنظر البعيد ، فهاموا فى أودية الخيال وجهلوا شعور البلاد ، وأهملوا إعداد شعور الأمة إعدادا يكفل النجاح .

أما الزعماء فى الكسندرية فاختاروا لقب (جونتا) للاتحاد الإيطالى ، واتجه هدفهم السياسى نحو مملكة إيطالية فى الشمال ، وقد أظهرت الثورتان ضعف الشعور بالوحدة والتضا من الصحيح فى العمل . ومع أن بعض رجال الثورة مثل سانتاروزا كان يتوقع جمع القوى الوطنية فى الشمال والجنوب ، وكان (منزونى) يرتل النشيد الآتى : « أمة واحدة جسما وقولا وقانوناً وقلباً » فإن المتآمرين فى بيمونته لم يخبروا نابولى بأهدافهم وخططهم ، وأجلوا حركتهم إلى أن تمت الثورة فى الجنوب ، وكان لكل من بيمونته ولمبارديه والرومانى ونابولى وصقلية سياسة خاصة لم يكن بعضها غريباً عن البعض الآخر فحسب ، بل إنها كانت ذات أهداف متباينة ، وقد يصطدم بعضها بالبعض الآخر . فرجال بيمونته ولمبارديه كانوا يتناقشون فيما بينهم حول أى من المدينتين — تورينو وميلانو —

يجب أن تكون العاصمة ، ورجال صقلية كانوا يكرهون أهل نابولى كل الكره ، حتى أنهم فرحوا بانتصار النمسويين ، وكان أهل نابولى يفضلون التخلى عن الغاية القومية على أن يمنح الحكم الذاتى إلى صقلية ، فضلا عن أنهم رفضوا دعوة وطنيي المارك لإشعال نار الثورة فى ممتلكات البابا . فمن الواضح إذن أن حركة الكاربوناري كانت تسير فى طريق خاطئ ، ولم يكن للثورة فى وادى بو إلا صدى ضئيل ، وقد لاحت بوادر المؤامرة فى الرومانى حتى أن الشاعر الإنجليزى (بايرن) كان قد خزن السلاح فى بيته لتجهيز الثوار به ، إلا أن الثورة فشلت فى الشمال والجنوب ، وأصبحت البلاد ترزح تحت نير الظافر .

فسيق كنفالونيرى مع كثير من رفقائه إلى معتقل (سبيلبرج) فى موارفيه ، حيث أخذ الإمبراطور فرانسو جوزيف يلعب بضحاياه لعب القط بالطيور الصريعة ، وأطلق مترنيخ العنان لذوق مودينه للانتقام من رعيته ، وطلب إلى فرديناند ملك نابولى أن يتظاهر بالحرية بمنح مجالس الإيالات بعض السلطات ، ومنح صقلية إدارة مستقلة خاضعة لنائب الملك . إلا أن الملك لم يلب الطلب ، وأخذ ينتقم من الأحرار فى قساوة ووحشية ، فأقصى من الإدارة والجيش والمؤسسات الدينية جميع العناصر الموالية للأحرار ، فشهدت نابولى أفظع المظالم ، وعلى الرغم من أن النمسويين سعوا لإنقاذ الضباط الثائرين إلا أن الملك أبعد ثلاثين

منهم إلى جزيرة جعلها سجنا ، فكانوا ينامون فيها على الأرض ويكابدون أسوأ معاملة حتى ماتوا فيها . ولم يكتف الملك بذلك بل استدعى اليسوعيين إلى مملكته ليساعدوه على إتمام العمل الوحشى الذى بدأ به . فأحرقت الكتب التى تحتوى الآراء الحرة ومنع استعمالها ، وفرضت مكوس باهظة على الكتب الواردة من الخارج ، وكان الوزير (مديجى) يعترف بأن من واجبه أن يترك الشعب فى جهل مطبق ، وأخذت الحكومة تطارد الكاربوناريين ففر الأحرار إلى الجبال بأسلحتهم مؤلفين العصابات .

أما فى بيمونته فسار الملك الجديد شارل فيلكس على أثر زميله ملك نابولى فى حركة الارتجاع ، إلا أن تقاليد بيمونته الموروثة حالت بينه وبين الاندفاع فى الطغيان الذى انغمس فيه فرديناند ، ولم يكن هذا الملك الجديد ظالماً بطبعه ولكنه كان يعتبر الثورة من أفظع الأعمال التى يجب أن يسحقها ، وكان يحكم حكما استبداديا بكل معنى الكلمة ، فارتاب فى جميع الناس حتى فى وزرائه ، وشعر بالمقت الشديد لأعمال المجددين . وكان لا يتردد فى القول : « الملك هو الشخص الوحيد الذى منحه الإله القدرة على اختيار أحسن الوسائط لاستخدامها فى سبيل سعادة رعيته ، وإن أول واجب للتابع المخلص ألا يتشكى أبداً » إلا أنه لم يكن متصفاً بالخلال التى تؤهله لأن يكون ملكا عظيما . وكان

الوحيد من آل صافويه الذى لم ينشأ من سلك الجنـدية ، فـكره أشغال الحـكومة ومراسم البـلاط ولم يكن لديه أصدقاء إلا القليل .

وهكذا أصبحت بيمونته الحرة ترزح تحت نير الاستبداد ، وقد أهينت كرامتها القومية ببقاء اثنى عشر ألفاً من الجند النمسويين فيها محتلين إياها ، وانتشر الأحرار المبعدون تحت كل كوكب فى فرنسة وأسبانية وانجلترة ومصر وأمريكية الجنوبية ، وأصبح سانتاروزا يدرس اللغة فى نوتنجام ، إلى أن مات بطلا فيها ، ومع ذلك كله فقد بوشر تنفيذ بعض الإصلاحات من لوائح بالبو الإصلاحية الخاصة بالأمور العدلية ، ووجه اهتمام إلى الأمور الزراعية وشجع المرسح ونشطت الآداب ، ثم انفصـل شارل فيلـكس من أصدقائه النمسويين وأهل روما ، فاحتج على النمسة لاحتلالها الـكسندريه ، ومع أنه كان يشجعها على البقاء فى نابولى إلا أنه رفض دعوتها إياه إلى التعاون المشترك ضد الأحرار ، وبهذا لم يضع الفرصة للظهور بمظهر الملك المستقل بآرائه .

الفصل الثالث

الأحوال الاجتماعية فى إيطالية

« بيمونته »

كانت مملكة بيمونته وليدة قرون عديدة ، وكان كونتات آل صافويه قد توصلوا إلى أن يتملكوا هذه الدولة الثانية من دول إيطالية من حيث السعة والتى ظفرت بموقع عال بين الممالك الثانوية فى أوربة . وبما أن هذه المملكة الصغيرة واقعة بين فرنسة والنمسة ، فإنها كانت ساحة للحروب التى نشبت بين المملكتين العدوتين ، وقد استطاع بيت صافويه المالك بالسياسة الحكيمة أن يوسع حدود مملكته على حساب المملكتين المذكورتين ، بوقوفه دائماً بجانب المنتصرة منهما . فكانت بيمونته الدولة الوحيدة فى إيطالية التى احتفظت باستقلالها أيام التسلط الإسبانى فى القرن السابع عشر ، ووقفت إلى جانب انجلترة ضد النمسة فى بداية القرن الثامن عشر ، فأضافت إلى ممتلكاتها (الكسندريه) و (الميلينا) ثم انحازت إلى فرنسة فحصلت على إيالة (نوفاره) ، وانضمت إلى جانب فينا فى حروب النمسة الوراثية فوسعت حدودها إلى تسّينا . فلم تعقد معاهدة والحالة هذه إلا وضمت أرض إلى مملكة بيمونته .

ولما نشبت الثورة الكبرى فى فرنسة كانت مملكة ساردنيه كما كانت تدعى حينئذ تحتوى على القسم الشمالى من إيطالية إلى جبال الإبنين أى ساردنيه ونيس وصافويه .

ولم تكن هذه السياسة التى اختارها أمراء صافويه ترجع فى قواعداها ودوافعها إلى أى اعتبار غير منفعة البلاد ، وكان يمليها عليهم موقعها الجغرافى الذى شجع ملوك بيمونته على أن يكونوا أوفياء ، كما وصفها أحد ساسة بلجيكه . وكان أهل البلاد كأمرائهم محاربين عنيدين ذوى رأى صائب لا يلتفتون إلى الآداب والفنون ، وكانت الزراعة فى حالة من التأخر ، أما الصناعة فكادت تكون معدومة . وكانت أكثرية الشعب لا تعبأ كلية بالحرية السياسية أو الحرية الدينية ، فارتضت عن طيب خاطر حكم آل صافويه العسكرى والأبوى المطلق . وكان ملوكهم ذوى كفاءة نادرة شاعرين بواجباتهم ، وقد استطاعوا بفضل اختلاطهم برعيتهم فى الكفاح المديد للمحافظة على كيان البلاد أن يصبحوا من صميم الأمة . وكان البلاط نشيطاً بسيطاً ، وكانت الحكومة بوروقراطية نزيهة ولكنها جامدة تشتغل فى أمور تافهة أما النظام المالى فيها فكان من أحسن الأنظمة فى أوربا وكانت ثمت أوجه شبه بين هذه الدولة وبين دولة بروسية فى ألمانية .

وكانت الحكومة تساعد التجارة وتشجع الصناعة الحديثة النشأة ، وكان الملك يرعاها ، أضف إلى ذلك أن الحكومة كانت

تحمى الناس من تعدى الأفراد المرهق ، وتضع القوانين النافعة للترفيه عن الفقراء ؛ أما الحقوق السياسية والتقدم الاجتماعى فلم يعبأ بهما الملك ولا الشعب . وكان الناس فى هذه المملكة شأنهم فى أنحاء إيطالية كلها ، هم وأملاكهم وشرفهم تحت رحمة الشرطة . وكان حق وضع القوانين نظرياً من صلاحية مجلس الأعيان أو المجلس الأعلى على نمط المجلس الافرنسى ، بيد أنه لم يكن لهذا المجلس المذكور شأن فى ذلك ، لأن أعضاءه يعينهم الملك ، وكان لمدينتى تورينو وجنوه هيئات بلدية ، ومع أن الإيالات كانت تدار من قبل حكومات إلا أنها كانت خاضعة للحكام العسكريين ؛ أما المدن فكانت تحت حكم قادة الحاميات . وقد عبر أحد أشراف بيمونته عن هذا الحكم بالعبارة التالية « ملك يأمر وطبقة أشراف تساعد وشعب يطيع » وكان الاشراف كلهم محدودى الفكر غير مسرفين ومتكبرين ، ومنهم تتألف الطائفة العسكرية ، وكانوا يتمتعون بامتيازات إقطاعية ويعيشون عيشة البساطة ويحكمون أتباعهم بيد صارمة ، ولكنهم غالباً ما كانوا يعطفون عليهم . أما أولاد الأشراف الصغار الذين لا يرثون بمقتضى القانون فيتولون المناصب العالية فى الجيش وفى الإدارة ، وكانوا يشتغلون بجد وسعى ليحيوا حياة تليق بشرف أسرهم ومجد وطنهم . وأما جماعة الإكليروس فكانت خاضعة لسلطة الحكومة المباشرة ، فالملك يعين المطارنة ، ورغم أن الملوك كانوا موالين للبابا فإنهم لم يسمحوا

بأى تدخل فى امتيازاتهم فى هذا الشأن ، ومع ذلك فإن كابوس الإكليروس كان جاثماً على البلاد ، إذ استطاع اليسوعيون فى سنة ١٨١٨ أن يستعيدوا نفوذهم . وكان للمدارس التى أنشأوها وخرجت عدداً كبيراً من أولاد الأغنياء أثرها فى تقوية مركزهم ، ولم يسمح لليهود بالاستخدام فى الوظائف العامة ولا بالدخول فى الجامعات . وبلغ امتداد نفوذ الكنيسة حداً كان معه الوزراء يراعون أيام الصوم خوفاً من العزل ، وكانت الجامعات توصد أبوابها أسبوعاً مرتين فى السنة للقيام بالواجبات الدينية ، وعلى الرغم من هذه الصرامة الدينية ، والمراسم الكثيرة التى تجريها الكنيسة كانت مدينة تورينو أكثر المدن الإيطالية الشمالية دعارة .

ولم يمنع كون الإشراف وجماعة الإكليروس دعامتين لنظام الحكم فى بيمونته أن يكون الجيش إحدى الدعائم أيضاً ، وقد احتفظ ملوك بيمونته بجيش كبير لا يناسب سعة المملكة ، وكان الجيش والأسطول ، إما حباً فى التوسع أو رعاية للموقع الجغرافى ، يستنفدان من الميزانية ثلاثة أرباعها ؛ فاستطاعت هذه المملكة أن تجهز سبعين ألفاً من الجنود . وخلاصة القول إذن أن دعائم الحكم فى بيمونته هى الأشراف والإكليروس والجيش ، وهؤلاء مهمتهم تأمين ولاء الشعب بعقيدة دينية وملوكية مشتركة ، ولجعل بيمونته محترمة فى نظر جاراتها الطامعات ، وحسبنا لنبين

قوة هذه الدعائم أن نصف العاصمة تورينو كان تكنات والنصف الآخر أديرة . هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى أنه كانت فى المملكة نقابات مؤلفة من الأساتذة والصناع تبث فى الأوساط الصناعية روح التنظيم الصارم . أما الفرق بين الطبقات فكان شاسعاً ، وقد أدى الحكم الافرنسى الذى استمر من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨١٤ إلى رق عظيم .

ولم يسع الملك فيكتور عمانوئيل حين عودته وأخوه من بعده إلا أن يمنحا بعض الامتيازات على كره منهما ، بسبب قوة تغلغل الآراء الحديثة . ويبدو مما تقدم أن مملكة بيمونته كانت متأخرة اجتماعياً بالقياس إلى ممالك أوربة الغربية . وكان القضاء فى بيمونته مزيجاً من الحقوق الرومانية وحقوق الكنيسة ومن إرادات ملكية وعرف محلى وقرارات للمحاكم غير مدونة . وكانت إيالة جنوة تأخذ بالقوانين الإفرنسية المدنية والتجارية ، بينما كانت لإيالة (آوستة) تشريع خاص ، وكان لبعض المدن الصغيرة أيضاً عرفها وامتيازاتها الخاصة بها .

أما التعليم فى المملكة فكان متأخراً ، وقد أمر الملك شارل فليكس سنة ١٨٢٢ بفتح مدارس للأولاد فى كل مديرية ، إلا أن الجديدة منها لم تفتح قبل سنة ١٨٤٦ . أما المديريات الفقيرة فقد حرمت منها ، وكان معظم العمال والقرويين أميين ولم يشمل التعليم الابتدائى البنات إلا فى سنة ١٨٤٦ وذلك فى بعض

المدارس ، وكانت الحكومة تقوم بنفقاتها ، وكان التعليم فيها ناقصاً . وكانت المواضيع التى تدرس فيها قاصرة على اللغة اللاتينية واليونانية وبعض العلوم الطبيعية ؛ أما التاريخ — واللغات الحديثة فلم تكن تدرس فيها . ويكاد الرهبان يكونون وحدهم المعلمين والأساتذة ، وكان همهم أن يلقنوا التلاميذ الطاعة العمياء ، ولكن الأذكياء من التلاميذ كانوا يجنحون إلى العصيان أو يندفعون إلى اليأس . وقد أراد الوزير (برسبيرو بالبو) أن يدرب معلمين علمانيين فى دور المعلمين ، إلا أن مشروعه هذا لم يطبق بسبب قوة الرجعية ، ولم يستطع خلفه أن ينفذ هذا المشروع إلا بعد ثلاث وثلاثين سنة . وكانت جامعتا تورينو وجنوة فى حالة سيئة ، إذ استولى عليهما اليسوعيون بعد سنة ١٨٢١ ، حتى أنه لم يكن يقبل فيهما التلاميذ ما لم يبرزوا شهادة تؤيد اعترافهم وإيمانهم . وكان الجواسيس يراقبون الأساتذة والتلاميذ ، حتى إذا ظهرت من الأساتذة أقل بادرة تنم عن استقلالهم بالرأى طردوا من عملهم وحرموا من الوظائف والمهن الحرة .

وكانت الزراعة مهنة أهل بيمونته الوحيدة باستثناء أهل جنوه ، ويؤلف أصحاب الأراضى خمسى الأهالى ، ويسكن أكثر القرويين فى وديان الألبة والأبنين ، وكان الكثيرون من القرويين الملاكين فى بلاد الزيتون فى الريفيرا يعيشون تارة فى هناء وأخرى فى شقاء عظيم ، وكان معظم مقاطعات السهول ملك

الأشراف ، وهؤلاء كانوا لا يعيشون فيها وإنما يؤجرونها للملتزمين . وكان الخوف من ازدياد الضرائب يحول دون الإقدام على تحسين الزراعة وتكثير إنتاجها ، وقد كان المزارع إذا تأخر عن دفع الضريبة تؤخذ منه مزرعته فيبقى مشرداً بلا أرض ، وقد استفحل هذا البلاء حتى اضطرت الحكومة إلى رعاية المزارعين ، وطلبت إلى المحاكم أن تنظر فى تأجيل ديونهم أو دفعها على أقساط مناسبة .

وأهل بيمونته على العموم شعب رزين صبور ضيق التفكير ولكنه يتحلى بقوة كبيرة من الثبات والإرادة ، أما الحكومة فعلى الرغم من تأخرها فإنها كانت نشيطة ووطنية معاً ، وتحبها الرعية بسبب وطنيتها . وكان الناس يحسون فى ذات نفوسهم أن مملكتهم سوف تهيمن على إيطاليه ، ويكاد سكان المملكة يتجاوزون نصف سكان نابولى وصقلية معاً ، ولكن كانوا أضأل ثروة وأقل ذكاء من سكان لمبارديه ، وظل امتزاجها بأهل جنوه ناقصاً . وكان خمسا رعيتها ينتمون إلى عرق ما وراء الألبه ويتكلمون لغة تختلف عن لغة أهل البلاد ، ولكن أخلاق الشعب القوية قد عوضته عن قلة عدده وثروته ؛ مع أن البيت المالك من آل صافويه كان قد رعاه وعلمه الطاعة والانقياد له ، إلا أنه طبعه بشمائل الرجولة والحرية الأمران النادر وجودهما فى إيطالية . وكان الفرويون ذوى قدرة على الكفاح واحتمال للمشقة دون أن ينوءوا بما

يحتملون ، ويمتازون بإخلاصهم واستعدادهم للتضحية ، فلذلك كانت سياسة الحكومة التقليدية توجيه الشعب إلى التطلع للشرف والطموح إلى التقدم . وكانت كلمة (ميلانو) شعار الملوك . وكان (دى ميستر) رسول المدرسة الحديثة التى تستهدف أن يكون لإيطالية تاج واحد ، وقد رجا من فيكتور عمانوئيل « أن ينسى عرش بيمونته وأن يفكر فى عرش إيطالية .

وقد يستمر الأشراف فى بيمونته على التباهى بأصلهم البروفنسى واحتقار الدم الطليانى النقى ، وقد تستطيع البورقراطية أن تعتبر إيطالية جزءاً من بيمونية ، بيد أن الوعى القومى القوى فيها كان كفيلا بأن يقود إيطالية إلى حرب الخلاص . وقد ظلت النمسة فى نظر الملك فيكتور عمانوئيل وخلفه شارل فيلكس العدو اللدود لإيطالية ، ولولا خشية الثورة فى الداخل لأعلنا عليها الحرب تحريراً لإيطالية ، على أنه لابد للمعركة من أن تشب عاجلا أو آجلا وستكون معركة حياة أو موت ، ولا غرابة فى أن يسود الاعتقاد بين الوطنيين فى إيطالية بأن ملوك بيمونتة وشعبها هم الذين سيقودون تلك الحركة .

لمباردية وفنيسية

إن تحرير لمباردية وفنيسية كان أمل جميع الوطنيين الإيطاليين ، فكان اغتباط أهل نابولى وروما وبيمونته بالمؤسسات الإدارية التى

يتمتع بها اللمبارديون والفنيسيون فى محله . لقد كانت الإدارة النمسوية فى القطرين المذكورين تستمد قوتها من التقاليد المستندة إلى الكفاية والنظام ، وقد تكون هذه الإدارة بطيئة فى عملها ولا يرضى عنها الشعب ، وقد تضحى بغرور الأهلين وعاداتهم القومية فى سبيل منافع النمسة وإدارتها المركزية ، وقد يساعد مركز الحكومة المرتبك على سوء تصرف الشرطة وعلى الاضطهاد الشنيع بعض الأحيان ، بيد أن الذى لاشك فيه هو أن النظام والقوة كانا من حسنات الإدارة الجرمانية فضلا عن أن الناس كانوا متساوين أمام القانون ، وإذا استثنينا دوقيتى (بارمه وطوسكانة) فإن الحرية الاجتماعية فى القطرين المذكورين كانت تامة لاغبار عليها .

ولمبارديه قد انتقلت إلى يد النمسة فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، فاستفادت من إصلاحات ماريا تريزا ويوسف الثانى ، وعقيب فتوح نابليون الأولى أصبحت ميلانو عاصمة الجمهورية ، ثم أمست عاصمة المملكة الإيطالية ، بعد أن ألحقت بها جمهورية فنيسيه ، وبذلك صارت عاصمة من العواصم الأوربية المهمة وقاعدة لبلاط فخم ، وكانت المدينة الأولى فى إيطالية فى رقى آدابها وصناعتها ومشاريعها الاجتماعية . فنفق (سمبلون) قد أشرف على فتحه مهندسون لمبارديون ، وكتدرائية ميلانو أكمل بناءها معماريون لمبارديون ، وساهم فى شرف انتصارات نابليون جنود لمبارديون

وكان (مونتى وفوسكولو)[1] قد أطلعا أوربا على آداب لمبارديه . ومع أن النمسة قد منحت لمبارديه وفنيسية الحكم الذاتى فى سخاء فإنها عند التنفيذ خالفت الوعود التى قطعتها ، ولا سيما بعد أن شغفت دول أوربة بالإدارة المركزية التى اقتبستها من نابليون . وكان هدف النمسة فى هذه الإدارة أن يطبع الألمان والسلاف والطليان بطابع واحد ، حتى أن مترنيخ كان يقول «على اللمبارديين أن ينسوا أنهم طليان» وطبق التشريع النمسوى فى البلاد غير مهتم بعادات الأهلين وتقاليدهم وعرفهم القومى ؛ وعلى الرغم من أن مترنيخ كان يميل إلى منح الطليان بعض الامتيازات فى الإدارة والقضاء ، إلا أنه إذا ما حدث اختلاف بين نائب الملك وبين حكام الإيالات أو بينه وبين مدير الشرطة ، كانت فينا هى التى تبت فى الخلاف ، وبذلك كانت تقبض على زمام الحكم ، وأخذت الكتب المدرسية النمسوية تدرس فى المدارس الابتدائية وألزمت الجامعات بتدريس القوانين النمسوية ، واستعيض عن تدريس تأريخ إيطالية بتاريخ النمسة ، ورأت الحكومة نفسها بعد مدة من الزمن أمام مشاكل عظيمة بسبب ما فرض من الضرائب الفادحة . وكان أهل لمبارديه وفينيسيه يدفعون ضعف ما كان يجب أن يجبى منهم من الضرائب . حتى أن نسبة الضرائب فى لمبارديه وفينيسيه

---

(١) Monti ، مونتى شاعر حماسى إيطالى ؛ Foscolo ، فوسكولو شاعر وكاتب إيطالى .

أصبحت وقت السلم أكثر مما كانت عليه وقت الحرب فى العهد الإفرنسى . أما ضرائب الأملاك فتجاوزت حد العشرين فى المائة من الوارد الصافى ، وكانت الحكومة هى التى تقدر الوارد الصافى فتسىء التقدير حتى تبلغ الضريبة ثلث الوارد الحقيقى أو نصفه .

وفى غير القضايا السياسية كان العدل النمسوى لا بأس به رغم ما يشعر به من العيوب الكثيرة الموجودة فيه من العدل الإيطالى ، فالناس لا حق لهم فى الحضور إلى المحاكم ، ولا يجوز للمتهم أن يستشير ، وليس من حقه أن يدرس الاتهامات الموجهة ضده بإمعان ، ولا توجد هيئة عدول ، ولكن النقص البارز فى العدل النمسوى عدم موافقته لعادات الإيطاليين واستخدامه أكثر القضاة من الأجانب . أما فى القضايا الدينية فالحكومة فى لمبارديه كانت أرقى منها فى سائر أنحاء إيطالية ، فالرهبان يعتبرون من موظفى الدولة والراهب الذى يرفض العمل بموجب التعليمات الإدارية يعاقب . وكان البروتستان والأرثودكس يتمتعون بحريتهم الدينية تماماً ، ولكنهم محرومون من حق الاستخدام فى الوظائف ، ولم يصب اليهود بأذى ولعل سيطرة الدولة على جماعة الإكليروس جعل لمبارديه أكثر تثقيفاً وحرية من سائر إيطالية ، ومع أن اليسوعيين استطاعوا العودة إلى فنيسيه سنة ١٨٤٣ فإنهم لم يستطيعوا أن يدخلوا ميلانو مطلقاً .

وكان التعليم فى لمبارديه أعم وأرقى منه فى جميع بلدان إيطالية

ما عدا بارمه ولوكا ، وقد كان التعليم الابتدائى إلزامياً على الذكور والإناث من السادسة إلى الثانية عشرة ، وكل وحدة إدارية مهما كانت صغيرة ملزمة بأن تفتح مدرسة فيها ، ولكل مدينة مهمة مدرستها الابتدائية يدرس فيها النحو واللاتين وقليل من العلوم الطبيعيه ومدرسة (جمنازيوم) (على أن تتم هذه الدراسة فى إحدى المدارس الثانوية البالغ عددها الاثنتى عشرة مدرسة) ، وكان فى كل من (بادويه وبافيه) جامعة تضم ألفاً وخمسمائة تلميذ وهاتان الجامعتان تبثان المبادئ الحرة فى نفوس الطلبة مما دعا إلى نقمة الشرطة وإرهابها .

ولعل رقابة المطبوعات فيها كانت أقل وطأة مما هى عليه فى جميع إيطالية ، ومع أن قانون سنة ١٨١٥ قد منح حق النقد السياسى فإنه حظر على أية جريدة سياسية أن تصدر قبل موافقة الرقيب العام فى فينا ، أضف إلى هذا أن جميع الكتب الأجنبية كانت خاضعة لرقابته حتى الروايات التى ليس لها قيمة علمية ، والمطبوعات التى تهاجم أسلوب الكتابة ونقاوة اللغة ممنوعة . وكان من جملة الكتب الممنوعة مؤلفات (بلزاك وبنتهام وفيكتور هوجو ومكيافيلى وهلام ورابله) ومع هذا فقد أحسن الرقيب عملا بمنع كل تأليف ينافى الأخلاق ؛ أما المؤلفات العلمية غير السياسية وكذلك كتب اللاهوت فكانت تتمتع أحياناً بكامل الحرية ، وكان مجال حرية الفكر فى ميلانو أوسع منه فى نواحى

إيطالية جميعها ، وكانت أكثر الصحف والمجلات الإيطالية تمتعا بالحرية هى صحف إيالتى لمبارديه وفنيسيه ومجلاتهما .

ولعل لمبارديه كانت القطر الوحيد فى إيطالية الذى يسير الحكم المحلى فيه على نهج واحد ، وكانت طبقة الملاكين تتمتع بحق إبداء الرأى ، ثم إن تقسيم الأرض على الناس جعلهم ذوى إيراد خاص يكاد يخول كل أسرة حق التصويت فى الوحدات الإدارية الصغيرة ، وكان الناخبون يجتمعون مرتين فى السنة للبت فى الأمور المهمة ، وكانوا ينتخبون من بينهم لجنة تنفيذية مؤلفة من ثلاثة أعضاء تنظر فى الشؤون الاعتيادية للوحدة الادارية ، وفى الوحدات الإدارية الكبيرة كان المنتخبون لا يجتمعون ولكن ثمت مجلساً مؤلفاً من ثلاثين عضواً إلى ستين عضواً يتولى إدارة الشؤون . وكانت السلطة التنفيذية فى المدن الكبيرة مودعة إلى (البديستا) أى المدير أو رئيس البلدية . أما القرارات الجديدة فمن حق المجلس . وكانت الوحدات الادارية تتولى شؤون المدارس والشرطة المحلية وطرق القرى والرهبان فى بعض الأحوال ، وتشرف على أمور الصحة والشرطة والأمور الخيرية كما أنها كانت تستطيع القيام بأمور نافعة بموافقة السلطة المركزية ، إلا أنه كلما تقرب الحكم الذاتى من التمثيل القومى كانت مخاوف الأوتوقراطية تضعفه .

وكان لكل من الديريات السبع عشرة مركز لمجلس الديرية

المؤلف من الأشراف والملاكين ، أما المدن الملكية البالغ عددها تسع عشرة فكان لها ممثلوها الخاصون ، وكانت سلطة هذه المجالس محدودة ، فهى التى تدير الشؤون المالية فى المديرية وتسيطر على مالية الوحدات الإدارية (الناحيات) ولها بعض الإشراف على الطرق والأنهار والمشاريع الخيرية ومع كل ذلك فالمجلسان المركزيان فى لمباردیه وفنيسيه لم يحققا الآمال المعلقة عليهما بالنسبة إلى ممارسة السلطة السياسية الفعالة . وكان الإمبراطور فرنسوا يقول « إن الحكم الدستورى يقضى على الثقة التى تجب أن تسود بين الشعب والأمير » .

وكان القانون فى الأمور السياسية جائراً ، ويلجأ إلى تعذيب المتهم وجلده وحرمانه من الطعام وغير ذلك من الأساليب ، ويحضر المتهم أمام المحكمة من دون أن يتاح له استدعاء محام ومن غير أن يعلم التهم الموجهة إليه ، وكانت المذكرات تظل سرية ، وهكذا يرى المتهم نفسه أمام حكام نمسويين وتيروليين . ومجرد التذمر السياسى يعتبر جرماً يقود صاحبه إلى الاعتقال فى قلعة (سبيلبرج) وفى حالة ارتكاب جماعة من الناس جريمة ضد أشخاص آخرين فإن السلطة تسوغ لنفسها إهمال جميع الأصول الحقوقية والحكم من دون محاكمة . وأما التجسس والمراقبة السرية فكانتا على أشدهما ، وكانت المراسلات مع الخارج تفتح ، وكانت ملفات الشرطة حافلة بالتقارير عن مؤامرة مرتبة من قبل بونابرت.

(أى نابوليون المعتقل) أو دسائس حيكت من قبل الإنجليز أو الروس . وحظرت على المواطن السياحة فى الخارج من دون الحصول على موافقة السلطات ، وقد يحول بعض التدخلات السرية دون استخدام المواطن فى وظائف الدولة ، وقد طرد أحد الأساتذة لأنه ردد هتاف البابا جوليوس . « فليذهب الأجنبى » ويكفى للدلالة على حق حرية الاجتماعات أن حفلة رقص خصوصية لم يكن جائزاً أن يدعى إليها من دون موافقة الشرطة .

ومع أن ميلانو فقدت مقامها فقد ظلت المدينة الصاخبة اللامعة المرتابة الخليعة . وكذلك فنيسيه فقد أضاعت منزلتها إلا فى فترات تجلى فيها الشعور السامى ، وكانت الطبقة الارستوقراطية فيها تتملق النمسه وضاعة . أما الطبقة المتوسطة فلم تكن ذات إرادة ونفوذ ، هذا ويعيش خمسا أهلها حينذاك على الصدقات . وقد عرف النمسويون كيف يستغلون هذا التردى فى الأخلاق فبذلوا إعانات سخية إلى دار الأوبرا ، وكانوا كلما حدث هياج سياسى يلهون الناس بمضاعفة الاهتمام باحتفالات الكرنفال . كما أنهم بذلوا جهدهم فى تأريث الحقد بين ميلانو وبرسيه وفنيسيه . وكان الشريف الذى يعمل للمصلحة العامة يفقد عطف الحكومة .

ومما يثير الحماسة القومية فى النفوس تلك الضرائب الفادحة

التى فرضتها الحكومة على الأملاك ، وكان أولاد الأشراف وبناتهم يربون على اعتبار النمسويين أجانب لا يجوز التساهل معهم ، وإنما يجب احتقارهم والابتعاد عنهم فى الرقص وفى المرسح ، بيد أن الأشراف كانوا قليلى العدد فى لمبارديه وكانت الطبقة المتوسطة تؤلف القسم الكبير فى البلاد ، وكانت هذه تعنى كل العناية بتجارتها . وتقدمت الصناعة بفضل ذكاء اللمبارديين وقابليتهم الفنية ، حتى غدت لمبارديه أكثف نفوساً فى أوربا باستثناء بلجيكة . ونمت تجارة الحرير وكثرت المغازل فى المناطق الجبلية واشتهرت مصانع الجبن فى (لودى وكريما) ، وانتشرت صناعة القطن وأنشئت مصافى السكر ، ولكن الناس كانوا يعلمون أنه مهما تقدمت الصناعة فى لمبارديه فإن عليهم أن يقدموا الحساب إلى النمسة . فلذلك قيدت التصرفات الجمركية المتعددة المرتبكة نشاط التجارة وشجعت التهريب . فخسرت فنيسيه مقامها فى التجارة على حساب منافستها (تريسته) واضطرت برسيه إلى غلق معاملها الحربية .

وأكثر الناس فى لمبارديه كانوا زراعا وأصحاب الأراضى يؤلفون ثمن الأهلين ، وكان عددهم فى ازدياد مستمر ، وكان كل قروى فى المناطق الجبلية يملك أرضه ويرجح الاحتفاظ باستقلاله فيها على رفاهيته ، ولما كانت النفوس كثيرة والضرائب باهظة فإن النقص فى وارد الأسرة كان يؤمن من غزل الحرير إذ اعتاد

كل بيت أن يقوم به . ويعيش القروى عيشة لا بأس بها ، وكان على رغم فقره أغنى من القروى الإفرنسى ، وكان الزراع فى السهول ناقصى التعليم وفى حالة البداوة ، يسكنون فى أكواخ من الطين ويكرهون رؤساءهم وأسيادهم ، وكثيرا ما استحوذ اليأس عليهم ولهذا فإنهم يؤلفون عنصرا خطرا .

وكان الأذكياء يعتبرون الإدارة النمسوية — بمجرد أنها نمسوية — أفظع من الاستبداد القائم فى روما ونابولى . وبمرور الزمن وبالتدريج تغلغل الحقد على النمسة فى قلوب الناس من جميع الطبقات وفى كل الأنحاء . وقد توغلت تعاليم (مازينى)[1] بين طبقات الناس من الأشراف والتجار والعمال حتى غدت البزة البيضاء التى يلبسها الجندى النمسوى رمز الاستبداد فى نظر الناس .

---

(١) مازينى : من أكبر وطنيي إيطالية الذين سعوا لاستقلالها واتحادها وكانت نزعته جمهورية وسترد أخباره فيما بعد بالتفصيل .

الفصل الرابع

مودينه — بارمة — لوكا — طوسكانه

مودينه : كانت دوقيتا مودينه وبارمه الصغيرتان تقعان إلى جنوب نهر بو ، بين لمبارديه وطوسكانه . وكانت نفوس مودينه وحدها تبلغ زهاء نصف المليون يحكمها الدوق فرنسوا ، وكانت أنظمة الدولة من الوجهة النظرية صالحة لكل ما يؤدى إلى خير الأهلين إلا أن تنفيذها كان يجرى على صورة فظيعة من الاستبداد ، وكانت الضرائب فادحة والقوانين المدنية والجزائية سيئة غامضة . وطالما تجاوزت الإرادات الأميرية القوانين وخرقتها فالمتهمون السياسيون مثلا كانوا يلقون فى السجون من دون أى دليل ، ويبقون فيها إلى أن تظهر الحقيقة . وقد جلب الحكم الإفرنسى إلى الدوقية النشاط وروح السعى والإقدام فاشتهرت مودينه بمدرستها التى تعد رجال الإدارة ، إلا أن الدوق فرنسوا قضى على ذلك كله كما قضى على نفوذ الحكومات الحرة فى النواحى . وكان التعليم الابتدائى شائعاً فى قليل من المدن ؛ أما التعليم الثانوى فكان بيد اليسوعيين ، كما أن الجامعة أتلفت بالنظام الذى أصدره الدوق وأصبحت مراقبة المطبوعات بيد المتعصبين الذين

بلغ من تعصبهم أنهم منعوا تداول مؤلفات دانتى .

ويؤلف القرويون الأكثرية الساحقة وهم الذين يملكون الأرض إلا القليل منهم ، وكانوا دائبي السعى والعمل فى أرضهم الجبلية الشحيحة ، ويرزحون تحت ظلم موظفى الحكومة ، ويجابهون الشقاء ، ولكنهم كانوا يوالون الحكومة حتى أن الأمير كان يجهز عند الحاجة ما يشاء من المتطوعين منهم .

بارمة : أما دوقية بارمة فكانت على عكس أختها دوقية موديته، تتمتع بحكومة هى من أبعد الحكومات فى إيطالية تبصرا ، وكانت كثيفة النفوس ، إذ يبلغ عدد سكانها الأربعمائة والخمسين ألفاً وكانت أرملة نابليون ، رغم خلاعتها وقلة مروتها ، شفيقة بالناس حسنة النية نحو رعيتها ، وكان الوزراء يساعدونها على سياسة رعيتها ، فى الحكم السمح والادارة الحرة ، وظل القانون الافرنسى نافذاً فيها ، ولم تكن ثمت فوارق أمام القانون ، وكانت المحاكمة علنية والحكام مستقلين، ومجلس الدولة يستشار فى جميع الأمور التشريعية وإدارة الشرطة لا بأس بها . وكان التعليم فى هذه الدوقية منتشراً بالنسبة إلى أكثر أنحاء إيطالية ، ففى أكثر النواحى مدارس للأولاد حتى بلغ عدد الذين يؤمون المدارس نحو خمس السكان .

لوكا : وكانت دوقية لوكا من أصغر الدويلات الإيطالية ، فمساحتها لا تتجاوز ثمانمائة وخمسين كيلو متراً مربعاً ، ونفوسها يبلغون مائة وخمسين ألفاً ، وقد خولها مؤتمر فينا حق الاحتفاظ

بدستور ١٨٠٥ ، بيد أنه سرعان ما ألغى هذا الحق ، ومع ذلك فإن الحكومة لم تكن متعصبة ولا ظالمة ، وكانت الأميرة فى هذه الدوقية كريمة الخلق حتى أنها استطاعت أن تنال ثقة أحرار إيطالية الذين رأوا فى ابنها الأمير (شارل لويس) الزعيم المؤمل فى ثورة ١٨٣١ . بيد أن هذا الأمير أصبح سخرية إيطالية إذ اعتنق البروتستانية لشهوة فى النفس ، ثم عاد إلى الكنيسة الكاثوليكية. وكانت البلاد متمتعة برخاء نسبى تستفيد من محصول زيتونها فائدة كبيرة ولكن محصولاتها الزراعية لم تكن تكفى سكانها الكثيرين ، فأخذ فريق منهم يهاجر منها . وفى الدوقية كثير من المدارس الابتدائية ونحو نصفها مجانية ، وكانت المدارس الثانوية فيها جيدة ، أما الجامعة ففيها خمسة وعشرون معلماً ومائة وثمانون تلميذاً .

طوسكانة : وكانت طوسكانه الحكومة الوحيدة — بعد بيمونته وبارمه — التى خضع لها رعيتها عن طيبة خاطر ، وإذا قورنت هذه الحكومات بحكومات إيطالية الأخرى ظهر أنها صالحة متساهلة مستغيرة . وكانت الاصلاحات الحسنة من تقاليد أحفاد (لئوبولد) الأول أول دوق نمسوى كبير حكم البلاد ، وهو من الأحرار الذين أنجبتهم أسرة هابسبرج . وكان وزير الدولة الأول ميالا بطبعه إلى الهدوء والسكينة ، ويرى أن السكون وحده كفيل بتجنب البلاد الأزمات ، وشعاره فى ذلك كله :

« أن العالم يسير بنفسه » فلم يكن والحالة هذه يأبه بالمبادئ . وإن كان فى طبعه وسياسته يميل إلى خير الشعب . وكانت التعليمات الصادرة إلى الأغنياء الذين تولوا شؤون الإدارة ألا يبذلوا جهداً كبيراً ، قانعين بقبض رواتبهم . وقد خدم هذا الوزير فى عهد نابليون ، وكان يحب أن يشتهر بالتسامح والرقى ، فلذلك نراه فى فرص عديدة يقبل اللاجئين من الرومانى ومن نابولى ، ويساعد أهل فلورنسه العاصمة على أن يرسلوا المتطوعين إلى بلاد اليونان الثائرة .

وكان الأمير لئوبولد الثانى بورجوازى الطبع محترما نشيطا ، وكان يحث الإشراف على أعمال الرى وزيارة مزارعه التجريبية . ورغم أن الوزير الأول كان يسعى للحيلولة دون جعل طوسكانة إيالة نمسوية فإن الأمير كان بحكم قرابته للأسرة المالكة فى النمسه ، يميل إلى تنفيذ أوامر فينا . وكانت القوانين خفيفة الوطأة ، ويعد قانون العقوبات الذى وضعه لئوبولد الأول فى حينه نموذجا فى كل أوربا ، وكانت المحاكمة بمقتضى القانون علنية ويجوز إطلاق سراح المتهم بالكفالة ولا يحكم بالموت إلا نادرا . وقد بلغ من تساهل الشرطة حدا ويخها معه مترنيخ ، ومع ذلك فإن التجسس فيها كان نشيطا فلم تنتهك حرمة البريد فى أى بلاد أخرى كما انتهكت فى طوسكانة ، وقد بلغت مهارة الشرطة فى فتح الرسائل والاطلاع على أسرارها مبلغا عظيما ، حتى أن حكومة ميلانو

استعانت بخبرتها فى هذه الشئون وكانت الرقابة على المطبوعات تتساهل إلى حد ما فى نقد الحكومة ، وكانت الكتب الممنوعة تباع أحيانا فى المكتبات علنا ، أما الكتب الأجنبية فكانت تدخل البلاد بحرية ، وكانت مكتبة (فيوسّو) Vieusseux فى فلورنسه المحل الوحيد فى إيطاليا الذى يتمتع الناس فيه بحريتهم ، فيتداولون فى الأمور السياسية ويقرءون جرائد أوربة المهمة .

وكانت الضرائب خفيفة وعادلة وليس هناك من حصر أو امتيازات تقيد التجارة ، وكانت ضريبة المستوردات أقل منها فى أوربا . وبلغ تعلق الناس بحرية التجارة إلى درجة أنه رفض الاقتراح بوضع تعريفة تقيد أجرة للمركبات فى فلورنسه . أما الجيش فقد أهمل أمره تماما بل أهين ، وإذا ما أريد الاحتفاظ به فذلك تنفيذ لما فوضته المعاهدات من جهة ولسماع الموسيقة العسكرية من جهة أخرى ، وكان أغلب الضباط من الأسر الغنية والجنود من سواد الشعب ، وهناك كتائب تدعى كتائب التوبة يساق إليها المجرمون . وكان للحكام تأثير فى الفساد العام ، وبلغ التردى فى هذا الأمر درجة أصبحت معها العدالة فى طوسكانة فاسدة لايوثق بها .

ورغم أن الحريات ظلت مرعية فقد أضاعت البلديات كل سلطتها الفعلية ، وأصبحت أداة لجباية الضرائب ، وكانت طوسكانة تاريخيا مجمعا من نواحيات أعرق ديمقراطية من الدول

المتحدة الأمريكية . أما الآن فأصبحت عاجزة عن فرض الرسوم ، تعين الحكومة المركزية الموظفين وهؤلاء كانوا يطأطئون الرءوس أمام سيدهم المطاع الشرطة ، ولعل طوسكانة كانت أرقى دولة فى إيطالية ، بيد أنها كانت كما قيل عنها (حديقة من حدائق الجنة) محرومة من شجرة العلم وشجرة الحياة .

ولم يكن الأشراف فى طوسكانة من دوحة الأشراف القدماء ، إنما كانوا من أحفاد المتمولين والأمراء التجار فى فلورنسه فى القرون الوسطى ، فظلوا دائما تجارا وزراعا . وبرز من هؤلاء الأشراف مصلحون اجتماعيون غير ، وكانت جمعية جورج فيس (George Fils) تشجع الناس على دراسة الاقتصاد وفتح المدارس وتأسيس صناديق التوفير واشتهر (روفائيلو لمبرو شكينى وأنريكو مامايز) فى نشر التعليم الابتدائى والثانوى كما أن (برنامى وريكاسولى) اندفعا نحو الإصلاحات الزراعية ، وكان الكثير منهم يرى « أن السياسة لاتغنى فتيلا ، وأن العادات الاجتماعية هى الكل فى الكل » .

وكانت الكنيسة فى طوسكانة متمتعة إلى حد ما باستقلالها ، وقد رفضت الحكومة أن تتساهل مع اليسوعيين ، وبما أن الحكومة تدرك الدور السيئ الذى لعبته الهيئات الدينية فيما مضى فإن هدفها أصبح إنقاذ البلاد من استبداد الإكليروس الذى استعبد بيمونته ، ودمر الرومانى ، وطبيعى أن يكون التعليم سيئا

حينما ترعاه إدارة فاسدة وإكليروس جاهل ، وقد كانت الحكومة تحمى جامعتى (بيزه وسيّنه) اللتين يدرس فيهما العلوم ماعدا الحقوق والطب إلا الشيء القليل ، وكانت المواضيع حتى فى هاتين الشعبتين لاتتعدى الدرجة الثانوية ، فضلا عن أن النتائج كانت ضعيفة لضعف الأساس فى التعليم الابتدائى . وكانت المدارس الثانوية قليلة ولكل ناحية مدرسة ابتدائية مجانية للبنين ، وكان عدد التلاميذ الذين يؤمون المدارس فى الأرياف لا يتجاوز عشر الذين تؤهلهم أعمارهم للالتحاق إليها . ولما وضع الأعضاء الناهضون فى الوزارة مشروع الدراسة الابتدائية لم يكن فيهم الحماسة الكافية لمقاومة دسائس روما التى جهدت لإحباط المشروع . وبقدر ما كان عدم تدخل الحكومة فى شئون المعارف وبالا على التعليم فإنه كان نافعا للصناعة ، إلا أنه لم يكن فى البلاد النشاط الكافى لتنعم عليها برخاء كالرخاء الذى كان يسود لمبارديه .

وكانت أكثرية الناس تحترف الزراعة نصفهم أصحاب أملاك ، والثلث أصحاب مزارع ، أما طرق الزراعة فكانت متأخرة ولاشك فى أن القرويين لم يكونوا قد تقدموا فى الفهم الاقتصادى ، إلا أنهم كانوا يأكلون طعاماً جيداً وكانت حالتهم مؤمنة ، وطالما خيم البؤس المدقع على الفلاحين الذين كان عددهم فى تزايد ، وعلى الرغم من أن التسول كان ممنوعاً فى فلورنسه ، فإن عدد المتسولين فيها كان كثيراً .

وخلاصة القول أن السائح الذى يتجول فى طوسكانه حينما يشاهد رخاء البلاد ورضاءها يلوح له أن طوسكانه هى أسعد قطر فى العالم ؛ أما الحقيقة فهى أن هذا البناء الجميل كان مشيدا على أساس واه ، وإذا كان فى هذه البلاد من يمكن اعتبارهم متمتعين بالحياة الحقة الخصبة فأولئك هم أهل الساحل الأشداء فى ليفورنا وتلاميذ جامعتى (بيزة وسيّنه) .

دويلات الكنيسة

تقع هذه الدويلات وسط إيطالية ، ويبلغ عدد نفوسها مليونين ونصف المليون . وكان الفرق البارز بين هذه الدويلات وبين جميع دول أوربا هو حكومة رهبانها . وكان العالم الكاثوليكى يرى أن شرف البابا وكرامته يتطلبان بأن يتمتع بحقوق الأمير وامتيازاته ومن أجل ذلك تأسست دولة مستقلة يحكمها البابا بصفته ملكا ؛ ومعنى هذا أن رجال الدين وحدهم هم الذين كانوا يديرون شؤون حكومة الله ، فهم الذين يضعون القوانين ، ويحكمون الإيالات ، ويقضون فى المحاكم ، ويديرون شؤون التعليم والشرطة . وكان مجلس الكرادلة المقدس الذى ينتخب البابا أعضاءه مسرحاً للدسائس الافرنسية والنمسوية . وكانت الدولة الكاثوليكية ترى أن مصلحتها تقضى بأن ينتخب بابا ضعيف الإرادة كبير السن رازحاً تحت ثقل تعهدات يتحملها

على عاتقه أمام الحزب الذى انتخبه .

وقد قال شاتو بريان : « إن أصل البلاء فى حكومة روما أن شيوخاً طاعنى السن يعينون شيخاً طاعناً مثلهم ، وإن هذا الشيخ مقابل ذلك لا يعين كردينالا إلا من الشيوخ » ومن ضروب الأمثال الشائعة فى روما المثل الآتى : « حكومة كل بابا عدوة للحكومة التى سبقتها . »

وقد كانت الحكومة خارج روما أيضاً بيد رجال الدين فكان الكرادلة يحكمون البلدان الأربعة (الرومانى وبولنية وفراره ورافينته وفورلى) ، وكان الأساقفة يحكمون البلدان الأخرى ذات الأهمية الضئيلة ، وكانت سلطة الكرادلة لا حد لها فكانوا يطالبون بحق فرض الضرائب كما يشاءون ، ويهملون أوامر روما بل ينحرفون عنها ، وكان هؤلاء الأمراء الكهنة يعاكسون كل تجدد ، ففى نظرهم أن السكة الحديدية والبرق والتجارة الحرة والاكتشاف لقاح الجدرى والأدبيات الحديثة هى عدوة الكنيسة ، ولقد كانت الشؤون المالية فى هذه الدولة على أسوأ حال .

أما الضرائب فكانت خفيفة الوطأة ، ولكن التجارة كانت مقيدة بالحواجز الجمركية ، فضلا عن فقدان السكك الحديدية والطرق الصالحة ، وتخبط الحكومة وانغماسها فى المراسم . وكانت العصابات منتشرة فى بعض النواحى ولا سيما بالقرب من

الحدود المتاخمة لمملكة نابولى . وكان لكل إيالة نظام خاص للموازين والمكاييل ، وقد أدت الضرائب إلى ازدياد حوادث التهريب ، وكان الأسقف الذى يتولى شؤون الخزينة يستنكف من درس الاقتصاد السياسى زاعماً أنه ضار .

وكان الإفرنسيون قد قضوا على مؤسسات البلدية القديمة العهد ، ولما عادت الأمور إلى مجاريها بعد مؤتمر فينا قضى الوزير الأول على ما بقى منها ، وكان فى الناحيات هياكل حكومات ، ويشرف الحاكم فى الإيالة على الشرطة ويدير شئون العدل وهو فعّال لما يريد فى الناحيات ، يتجاوز كل قيد فى سبيل مراضاة آمره الكهنوتى . وكانت القوانين عبارة عن مجلد ضخم من الأوامر والمراسيم التى لا تناسب بينها ، والتى صدرت فى جميع الأدوار فأكل عليها الدهر وشرب . ولقد احتفظ بقانون التجارة الإفرنسى وأريد بعد مدة وضع قانون مدنى على غرار قانون نابليون ، إلا أنه كان يحتوى كثيراً من المساوئ القديمة كمنعه الطلاق وحرمانه النساء من الإرث وإبطاله الوصيات التى لا تحتوى هبة للكنيسة . وكان مجلس البابا القدسى يستطيع أن يلغى أحكام جميع القوانين ، وكانت أصول المحاكمة تستمد أحكامها من قوانين الكنسية . فلذلك كان للراهب صبغة مقدسة فلا يحاكم إلا أمام محكمة مؤلفة من رجال الدين ، وكانت العقوبة التى يعاقب بها أخف من عقوبة الرجل العلمانى . وأما المحكومون السياسيون فكانوا يسجنون

فى محلات سافلة ، ويزجون مع المجرمين الآخرين ، أو يقيدون بالسلاسل ويقضون حياتهم فى غيابات الجب . وكانت الشرطة عاتية كل العتو فهى تستطيع أن تسجن الشخص أو تنفيه أو تراقبه أو ترفض إعطاءه جواز السفر ، وتفرض عليه الإقامة فى المحل الذى تختاره له وتحرمه من الحقوق المدنية ، وقد تحرمه من عمله وتمنعه من حمل السلاح أو من الخروج ليلا من داره ، وتفتح الرسائل فى دائرة البريد ، وتخترق حرمة مسكنه وتفتش أوراقه ، كما أنها تستطيع أن تغلق المخازن والمقاهى والفنادق وتضع الجزاء النقدى كما تشاء . وكان التجسس عاماً والناس يوقفون بمجرد رغبة راهب القرية .

وبينما كان مجلس التفتيش يضطر الشعب إلى الظهور بمظهر واحد كانت الحكومة تسعى لمحو الإلحاد والشغب بشل التعليم ، وكان مما يسند إليها أنها تتساهل فى القضاء على الرذيلة وتضطهد الفكر الحر . وكان أحد أسياد الكنيسة لا يتورع عن القول : « تسهل جداً إدارة الشعب الجاهل » . وكان رجال الاكليروس يحتكرون التعليم ، فأفسدته أنظمتهم الصارمة ، وكان لا يستطيع أحد أن يعلم من دون مساعدة الأسقف ، وسيطر اليسوعيون على التعليم الثانوى . أما رهبان الايغنورانتينه (Ignorantine) الذين لا يحبهم الشعب فألفوا الهيئات التعليمية فى كثير من المدارس الأولية . فكان أكثر الأساتذة فى الجامعات من رجال الكهنوت .

ولم تبذل أية عناية لتعميم التعليم الابتدائى بين الشعب ، حتى أن البنات حرمن من التعليم الابتدائى حرماناً كلياً ، وكان الرأى العام ينقم على كل من يعلم بناته . ويقدر عدد الذين يؤمون المدارس باثنين فى المائة ؛ أما فى روما فترفع هذه النسبة إلى عشرة بالمائة ، وقد كان طلاب المدارس الثانوية يحملون على حشد أدمغتهم بدراسة الصرف والنحو اللاتينى ، وبدراسة ما وراء الطبيعة القديمة مما يفسد قرائحهم ، على أن هذا التعليم الناقص لم يحل دون كثرة الجامعات . فهناك جامعتان كبيرتان فى روما وبولونيه وجامعات فرعية أخرى فى (بيرونه وفراره وكمبيرينو ومسبراتو وفرمو) . وعلى الرغم من أن هذه الجامعات لا تدرس فيها الآداب الحديثة والاقتصاد السياسى وما شابه ذلك من المواضيع ، فإن الحكومة كانت فى قلق مستمر من أن تكون هذه الجامعات مباءة للحرية . وقد منع اليسوعيون دراسة دانتى فى مدارسهم وحين تأسيس بعض المعاهد الخاصة لدراسة المؤلفات الاقتصادية ما أسرع ما منعت من ذلك ، وبلغ تقييد التعليم حداً منع معه أحد الرقباء تلاوة أشعار نظمت عن الزلزال . ولم يسمح بقراءة المؤلفات الإيطالية والأجنبية فضلا عن أن أكثر المؤلفات الحديثة المشهورة ومعظم الجرائد أدخلت فى قائمة المطبوعات الممنوعة . وكانت الحكومات تنشد من هذا المنع أن تصون الايمان الدينى من أن يتزعزع ، وفاتها أن هذا الاضطهاد نفسه من شأنه أن يخدم حرية الفكر ، وأن

يؤدى إلى تمسك الطبقات المثقفة بها وإلى تقويض دعائم السلطة البابوية . وطبيعى أن تؤدى كثير من الأنظمة الأخلاقية الشديدة إلى عكس ما يراد منها إذا كان القائمون على تنفيذها أنفسهم فاسدى الأخلاق .

فالرقابة الشديدة حرصت على أن تكون المسارح طاهرة ، ولكنها سمحت للكنائس بأن تكون بؤرة للدسائس والفساد ، وقال أحد الحكام الايرلنديين وقد ساح فى الأرض : « إن رعية البابا هم الشعب الأوروبى الوحيد الذى يلاقى اضطهاداً أكثر مما يلاقى أبناء وطنه (الإيرلنديون) .

أما جور العصابات وتعديات رجال سنتوريون (Centurion) فقد قضت على البقية الباقية من الرفاء الذى كان يتنعم به القرويون والمزارعون ، وكانت جمعية السانفيد يست (Sanfedist) تضم بين جنبيها العاطلين ليصبحوا حماة الإيمان المتحمسين . والانكى من ذلك كله أن الخلافات الموروثة قد انقلبت فيما بعد إلى كفاح دموى بين الأحرار وجماعة السانفيديست ، وكانت دولة الرومانى دائما ساحة للمؤامرات ، وكان أكثر الأحرار من أنصار الانفصال عن روما ، ولم يكن هناك تجانس بين المناطق الغربية والمناطق الشرقية إذ كانت جبال الابنين تفصل بين روما والدويلات الأخرى ، وكانت هذه الدويلات قريبة فى عاداتها وأهوائها من

الأيالات التى ألفت بلاد إيطالية . ولم تنس مدن الرومان الحرية المفقودة التى كانت تتمتع بها بموجب المعاهدات القديمة . لقد قضى نابليون على هذه الحرية ورفض الوزير الأول فى حكومة البابا أن يعيدها فاعتبرت هذه الحكومة ناكثة لعهودها ، وكانت أكثرية أهالى بولونية الفخورة بتأريخها وجامعتها وتجارتها يحملون فى صدورهم حقداً على روما ، ومن جملة الأمثال الشائعة فى الرومانى . « الترك ولا البابا » حتى إن القسم الكبير منهم كان يرضى بحكم النمسة إذا استطاعت أن تنقذهم من جور الحكومة البابوية . وكان البعض من رجال السياسة يرتأى أن الحكم الذاتى هو الواسطة الوحيدة لاحتفاظ روما بايالات الادرياتيك ، وكلما حدثت أزمة فى الدولة يتجلى الشعور بالانفصال شيئاً فشيئا .

والخلاصة أن روما كانت كما وصفها مترنيخ « مرسحاً ضخما لمثلين سيئين . كنائسها حافلة بالزينات إلا أنها خالية من الناس» وكانت المدينة فى ظاهرها من أطهر مدن أوربا خلقا ، أما فى الواقع فكانت من أفسقها . وكانت الصناعة فيها غير ناشطة والمتسولون منبثين فى طرقاتها وأكثر فقرائها عالة على بيوت الأساقفة والأشراف . أما العامة فكانت تحمل فى قلبها ولاء لا حد له للبابا وفيما عدا بعض الفترات فمدينة روما كانت أقل إيطالية من جميع المدن الإيطالية .

الفصل الخامس

مملكة نابولى وصقليه

كانت مملكة نابولى وصقلية أو الصقليتين بالاصطلاح السياسى تقاس بثلاثة أثمان شبه الجزيرة ، وتمتاز عن غيرها من الدول الإيطالية بموقعها الجغرافى وبالبغض الشديد بين النابوليين والصقليين ، وكان هذان البلدان اللذان وحد بينهما اضطهاد الحكومة المشترك يختلف الواحد عن الآخر فى التقاليد والميول ، ولا تشابه بينهما مطلقا فى السجايا وفى الحالة الاجتماعية ، ولما عاد الملك إلى نابولى من صقلية سنة ١٧٩٩ بعد أن التجأ إليها راح ينتقم من الرعية ، وحينما انتصر الإفرنسيون عاد الملك إلى منفاه فى صقلية بحماية السلاح البريطانى فدخلت نابولى فى الحكم الإفرنسى فى عهد يوسف بونابرت أولا وفى عهد مورات أخيرا . وقد ألغى الإفرنسيون النظام الإقطاعى وبيع الكثير من أملاك الكنيسة الواسعة أو أجر ، وقسمت الأراضى فى الناحيات أقساما صغيرة وأجرت للفقراء من الأهلين ، واشترى صغار الملاكين أرضين واسعة ، حتى بلغ عدد الملاكين للأرض نحو المليون أى نحو خمس السكان .

وفضلا عن أن مورات أنقذ نابولى من النظام الإقطاعى ، فقد جهزها بقوانين إصلاحية ومالية منتظمة ، وأدخل فيها طريقة استملاك الأرض بصورة مستقرة ، ورغم أن أكثر الأمور عادت بعد مؤتمر فينا إلى حالتها القديمة ، فإن القانون والكنيسة والأرض ظلت نظرياً على الأقل متفقة والقرون الحديثة إلا أن الفساد نفسه كان يسود دائماً فى كل شعبة من شعبات الإدارة . وكان القانون المدنى لنابولى أرقى فى إيطالية كلها ، وكانت المحاكم مفتوحة لمن يشاء من الناس ليتقاضى أمامها . وكانت طريقتا جزاء النقدى وتخلية المتهم بالكفالة مرعيتين ، وللمتهم أن يختار محامياً له ولكن التحكيم كان عملياً هو القانون الوحيد فى أكثر الأحيان . وكان البلاط يتدخل لحماية — المحسوبين عليه أو لاضطهاد الأحرار . وكانت الشرطة ذات صلاحية لمحاكمة المتهمين تبعاً لأصول محاكمها السرية وغير الشرعية ، ولها أن تخلى سبيل المحكومين أو أن تبقى المتهمين فى السجن رغم أن المحاكم برأت ساحتهم ، وقد تجلد المسجونين . وكانت الحكومة تغض النظر عن تعذيبهم زد على ذلك أنها تشجع الشرطة عليه ، وقد يقع القتل فى رابعة النهار ولا يعاقب القاتل إذا كان له أصدقاء أقوياء .

وكان لكل أياله مجلس تعين الحكومة أعضاءه وله صلاحية فرض الضرائب والقيام بأمور النافعة والإشراف على الطرق الكبيرة وشؤون الجمعيات العامة ومراقبة الموظفين واقتراح

الإصلاحات الإدارية ومناقشة القضايا الخاصة بمصلحة الدولة العامة. أما مجالس المديريات فكانت تشرف على الطرق القروية والمدارس الأولية وتلقيح الأولاد واللقاط والقيام بمعيشتهم بيد أن هذا البيان مهما كان قوياً حيث المبدأ فإن فساد الحكومة واستبداد الرؤساء المحليين الصغار كفيلان بتقويضه . وكان التصويت لانتخاب أعضاء مجلس الناحية لا يمثل غالباً إلا أوامر السيد الإقطاعى القديم الذى كان عملاؤه ينهبون أموال المديرية ويتلفون غاباتها بالاتفاق مع الموظفين على حسابه .

أما فى التعليم فهناك هوة سحيقة بين القول والعمل ؛ فالقانون يحتم على كل مديرية — ما عدا الصغيرة جداً — أن تكون لها مدرسة أولية ، وعلى كل ولاية أن تكون فيها مدرسة ثانوية بيد أنه لم يبذل أى جهد فى سبيل حضور التلاميذ إليها ، ولا توجد فى مدينة نابولى نفسها سوى أربع مدارس مجانية ، ولا يؤمها أكثر من ثلث الذين هم فى سن التعليم ، وكان الأساقفة يبذلون جهدهم ليحولوا دون انتشار التعليم حتى خلت بعض المديريات من أى فرد يقرأ ويكتب ، ومما يدل على انتشار الجهل أن القانون كان يحتم أن يكون ثلث أعضاء مجلس المديرية ممن يحسنون القراءة والكتابة . ولكن الجامعة كانت ذات مقام وصيت ، فدروسها تلقى اهتماماً وتتبعاً كثيراً ، وأن أساتذتها يتمتعون بالاستقلال إلى حد ما ،

بيد أن بلادة الحياة والجو الصاخب فى العاصمة كان يفسدان أخلاق فتيان الولايات أحياناً .

ويمكن تشبيه الحكومة بأهرام رأسه الملك وقاعدته الشرطة والرهبان ، فما اهتم الرأس ولا القاعدة بالمصلحة العامة قط ، وهذه وزارة الداخلية كانت سوقاً يروج فيه بيع المناصب وشراؤها . وكان بعض الموظفين الكبار يحتكرون الحنطة للمضاربة بها على حسابهم الخاص . وقد استولى وزير الداخلية على أثمن قنى خرائب (بومبئى) لمجموعاته التحفية الذاتية ولم تتردد حاشيته (أو من يعملون معه) من الاقتداء به . ولا يجوز محاكمة الموظف إلا بموافقة الملك ، فاستغل الموظفون هذه الحصانة كل الاستغلال . وكانت الشرطة تخل بحرمة المراسلات وتقوم هى بعمليات التهريب ، وتخبر الأشقياء من أهل كابريه حينما يتهددهم خطر الحكومة ، وقد تأدبهم حين يطاردون . وكان أكثر الأشراف راضياً عن ذلك ما دام القسم الأكبر من المتاع المنهوب ينتهى إليهم . وكان أشراف كابريه يتغيبون عن محل سكناهم ويترددون على العاصمة . الأمر الذى لم يكن مألوفاً فى جميع إيطالية .

وكانت ضرائب الجمرك فاحشة حتى تناولت الكتب الأجنبية فحالت دون دخولها ، وكانت الطبقة المثقفة ضئيلة العدد ولا ينكر أن البعض من القضاة والأدباء كانوا ذوى ثقافة راقية إلا إنه كانت تعوزهم الحيوية والوطنية اللتان يمتاز بهما مثقفو شمال إيطالية

ووسطها . وكانت الدسائس وارتباك الحكومة عبارة عن عراقيل أمام كل المشاريع . وقد فرض الملك بعض القيود على المصارف وألغى شركات التأمين . وكانت نابولى أكبر مدن إيطالية ، ويبلغ عدد نفوسها ثلثمائة ألف ونيفا ، وكانت العاصمة بالنسبة لسائر المدن ابن الحكومة المدلل . فبينما الفرويون يتضورون جوعاً كانت الحكومة تجود بالإعانات لمسرح (سان كارلو) وكانت جمعية (لزارونى — Lezzaroni) البالغ عدد أعضائها أربعين ألفاً ونيفاً تضم خليطاً من فاسدى الأخلاق والعاطلين الذى حجّرت الآلام قلوبهم وزادتها غلظة بالاعتقادات الباطلة ، وكانوا يتحفزون لتلبية أول نداء يحدوهم إلى قتل الصناع والتجار ونهب ما يستطاع نهبه باسم منفعة العرش والمذبح . أما جمعية (كامورا — Camora) فكانت ذات تنظيمات مروعة تستخدمها لحماية الإجرام وجباية الضريبة السوداء .

وكان خمس أسداس العمال يخدمون فى الأرياف ، وتحتوى المملكة مقاطعة (ترادى لافورو) الخصبة فضلا عن منطقة المراعى السهلة على ضفاف الادرياتيك ومزارع الزيتون الغنية ، وكان القسم الأكبر من البلاد ذا خصب يفوق الوصف ، بيد أن إهمال الحكومة وسوء الإدارة حالتا دون الاستفادة من هذا الخصب إلا فى بعض الساحات الضيقة ، وعرقل الزراعة فى القسم الجنوبى من البلاد فقدان الطرق ، فكان طبيعياً ألا تتقدم الزراعة تقدماً

يذكر ، وأن تكون غلة الحبوب والجوز والزيت رديئة ، وكانت أكثرية المزارعين تستأجر مزارعها بشروط باهظة ، ثم تدفع الفوائد الفاحشة إلى الشريف المرابى وإلى الدائن ، ويحدث — أحياناً أن يؤجر قسم كبير من الأرض ، وذلك رغم تحظير التشريع الأفرنسى بعقود كثيرة الأجل جداً حتى إذا ما انتهت استلم الشريف الأرض وغلتها بتعويض قليل أو بدونه ، ثم يأتى دور جابى الضرائب ليأخذ ما أبقاه الملاك ، وكانت هناك ضريبة فاحشة مفروضة على الأرض يطالب القرويون بدفعها دون هوادة وكثيراً ما كانت بيوتهم وأدواتهم تصادر لأداء ضريبة الطحن الباهظة ، وكان سعر الملح الذى تحتكره الحكومة غالياً حتى كان الشعب أحياناً لا يستطيع شراءه ، وكان الأشراف يضطهدون القرويين والفلاحين ويستعبدونهم ويفسدون أخلاق أسرهم ويدعونهم فى فقر مدقع ، واستوطنت الشقاوة منذ أجيال خلت بعض المناطق الجبلية ولكنها اكتسبت فى عهد الافرنسيين صبغة سياسية . ولما عاد آل بوربون أصبحت واسطة أجرام ؛ فكان أهل كابريه لا يخرجون من دورهم إلا شاكى السلاح من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم .

وطبيعى ألا ينتظر من شعب هذا شأنه أى نشاط سياسى محكم ، وهذا لم يحل دون وجود طبقة كبيرة من الملاكين والتجار الذين أمنوا شر الفاقة واعتزلوا فى أملاكهم الصغيرة ، ولا شك

فى أن الكاربوناريين فى سنة ١٨٤٠ قد استمدوا قوتهم من هؤلاء ، بيد أنهم مع الأسف كانوا يؤلفون أقلية صغيرة ، أقلية فاسدة الأخلاق فاقدة النشاط .

والخلاصة أن السواد الأعظم من الشعب كان مصاباً بالجهالة والشقاء ؛ فيلوح والحالة هذه أن تأخر المدينة وتباين المنافع كانا يحولان دون أن تسير نابولى محاذية لأنحاء إيطالية الأخرى .

صقلية : كانت صقلية ونابولى تؤلفان دولة واحدة إلا أن حقداً دفيناً كان يفرق بينهما كما يفرق الحقد بين إيرلندة وانكلترة وكان اختلاف العرف والتأريخ والطبائع يحول دون اندماج الجزيرة بشبه الجزيرة ؛ فمزيج من الدم النورمندى والعرب والبربر فى الجزيرة وأقليمها شبه الحار والتقاليد البرلمانية المتأصلة فى الجزيرة، ذلك كله جعل للجزيرة خصائص لا رابط لها بتلك التى فى شبه الجزيرة ، وكان الصقليون يمتازون بالكرم والرجولة ويتحلون بأمانة صلبة فلا يخون الصقلى أحداً إلا فيما ندر ويفضل الحياة البرلمانية التى استمدت سبعة قرون ، كان الصقليون يهتمون بالأمور السياسية ويتمايزون بالوطنية وقد تمتعت صقلية باستقلالها مدة طويلة ، وعلى الرغم من انضمامها إلى نابولى سنة ١٧٣٥ فإنها ظلت محتفظة بعلمها الخاص وبرلمانها وإدارتها .

وقد أدى الصراع الناشب بين البلاط والأشراف سنة ١٨١٢

إلى تثبيت حقوق الصقليين ؛ فإن الناس لم يسلموا من اضطهاد آل بوربون وظلمهم ، وكان موظفو نابولى يجهرون بملء أفواههم أنهم أتوا إلى صقلية ليمدنوا سكانها المتوحشين ، وكانوا يعاملون الجزيرة معاملة المستعمرات مما أدى إلى حقد الصقليين عليهم وعلى بلاطهم ، وكان التودد بين أحرار بالرمو وأحرار نابولى قليلا ؛ ولم يكن الصقليون يضمرون الولاء لنتاج ، وإنما كانوا على استعداد ليمدوا أيديهم إلى أية دولة تمنحهم استقلالهم ، سواء أكانت تلك الدولة إنجلترة أم روسية أم فرنسة ، ولم يتسرب الشعور الإيطالى فى صقلية إلا أخيراً حين أخذت الجزيرة تستنجد بإيطاليـة ضد نابولى ، وترى أن الحرية إنما تكون بالاندماج فى وطن مستقل واحد تقف فيه صقلية على قدم المساواة مع نابولى .

لم يجر تقسيم الأملاك على صورة واسعة كما هو الأمر فى نابولى رغم القوانين التى كانت تسهل بيع الأملاك فى صقلية ، وقد أعد الملاكون الكبار وألفوا عصبة فيما بينهم لحماية منافعهم وانضم إليهم بعض التجار الذين استملكوا بعض الأراضى ، ومع أن أملاك الناحيات قسمت أقساماً صغيرة إلا أن القسم الأعظم من الشعب لم يكونوا أصحاب أراضى إلا فى بعض المناطق حيث وجد كثيرون من صغار الملاكين ، ويجدر بنا أن نذكر أن تسعة أعشار الأرض كانت بيد الأشراف والأساقفة وامتدت أملاك بعض الأمراء إلى مسافة خمسين كيلو متراً ، وكان الأمن

مختلا فى الأرياف مما حدا الناس إلى سكنى المدن حتى يصح القول بأن اثنين فى المائة فقط من أهالى ثلاث إيالات كانوا يعيشون فى الأرياف ، فكنت ترى مراعى طبيعية واسعة المساحات بلا قرى ومن دون أشجار ، موبوءة بالملاريا ولا تصلح إلا لرعى الماشية ، هكذا غدت حالة البلاد التى كانت مستودع الحبوب والميرة الإيطالية ، وقد ساعد على صيرورتها إلى هذه الحالة أنه لم يكن لدى أصحاب المزارع رأس مال كافى لاستغلال أملاكهم الواسعة التى تتفاوت مساحتها من (٢٠٠٠ إلى ٥٠٠٠) فداناً ، وكان هؤلاء يقسمون أرضهم قطعاً صغيرة ، ويؤجرونها للقرويين إلى آجال قصيرة ، ويقدمون لهم البذر ، ويؤمنون مالا لشراء البقرة والمحراث ، وهؤلاء يزرعونها حبوباً ويدفعون لمؤجريهم ومقرضيهم عيناً من الغلة كانت تبلغ ثلاثة أرباعها ، وطبيعى ألا تؤدى تلك الطريقة إلى تقدم الزراعة فتبقى فى حالتها الابتدائية .

على أن حالة التجارة فى الجزيرة كانت أسوء من حالة الزراعة ، ولعل الصناعة الوحيدة فيها كانت صناعة الخمور وأعمال مناجم الكبريت التى كانت تستغل برؤوس أموال أجنبية . ولم تكن المبادلة التجارية بينها وبين نابولى جيدة ، فكانت أنظمة الحماية تعرقل نمو التجارة وتقدمها ، وكانت حالة العمال فى المناجم سيئة . ويتقاضى الفلاحون الذين يقطعون كل يوم مسافات طويلة للذهاب من

مساكنهم فى المدينة إلى الحقول أجرة أسبوعية تتفاوت بين الست فرنكات إيطالية والتسعة . ومع أن القرويين كانوا ذوى جد وقناعة فإنهم رزحوا تحت أثقال الربا الفاحش ، ورسوم الطحن العالية ، وضريبة الأملاك . ولطالما أدى بهم اليأس إلى ترك أرضهم والانخراط فى سلك الأشقياء الذى يدر عليهم أرباحاً لا تدرها الزراعة .

ولم يكن فى البلاد من يحترم القانون ، والحكومة نفسها لم تكن تتردد فى خرقه . أما الموظفون فكانوا يستخدمونه حسب أهوائهم ، وكان الأشراف يستخدمون أنصارهم لقتل أعدائهم ، فخدم الأشراف وأشقياء باليرمو الجناة وغارسو أشجار البرتقال فى منطقة (كنكاردو) والطبقة الوسطى فى المدينة كل أولئك يتآمرون سراً على القانون ، ويقفون فى وجه العدالة ويشلون أعمال الحكومة ولم يك ينقذ هذه الجزيرة المسكينة من شقائها إلا السعى فى أناة لإنشاء جيل جديد يشفيها من جهلها وفقرها ومعتقداتها الباطلة . ولم يعمل شيء ما فى هذا السبيل ، فلا أثر للتعليم تقريبا ، وأولاد الأشراف أنفسهم كانوا أميين فى الغالب ، وتنفق مدينة باليرمو على أولاد اللقطاء عشرة اضعاف ما تنفقه على التعليم ، ويتقاضى أساتذة الجامعة أجرة هى دون أجرة جندى دركى ، وكان الشعب

يؤمن بمعتقدات دينية وثنية ، ولا تفوتنا الإشارة إلى أن الكنيسة كانت قوية جداً ، وأنه كانت للرهبان أموال جسيمة لم تتعرض إليها الثورة ، ولعل قيمتها تفوق قيمة جميع الأديرة فى إيطالية وينقسم الشعب طبقتين . طبقة الأشراف وطبقة العمال ولا توجد طبقة البورجوازى المتوسطة .

الفصل السادس

إيطالية بأجمعها

إن الذين لا يصدقون وجود أمة إيطالية ، يؤيدون دعواهم باختلاف السجايا التى يتصف بها أهل الدويلات المختلفة فيها ، وندرة الصفات المشتركة بينهم ، ويشيرون مثلا إلى الفرق بين ابن بيمونته الرزين المجتهد ، وبين العامل الفرفار العاطل الخليع فى فينسيه ونابولى ، وكذلك بين الطوسكانى الذكى اللطيف والصقلى الحديد المزاح السفاك ، ثم يقولون إنه لم يجمعهم أصل مشترك . فالدم الجرمانى هو الحاكم فى الشمال ، بينما الدم العربى والنورمندى والاسبانى قد ترك آثاره فى صقلية ، أما الدم الإيطالى والأترسكى القديم فبقى فى طوسكانة وبعض المناطق الوسطى مع معرفة أنه لم يكن نقيا . أما الحكومات المختلفة فى تلك الدويلات فقد كونت فى الشعوب الإيطالية عادات اجتماعية متفاوتة ونظم التملك العقارى لا تشابه بينها مطلقاً ، وقد دفعتهم إما إلى النشاط فى الصناعة أو الركود فيها . أما درجة التعليم فإما راقية وإما منحطة . وهذه التقاليد والعادات الإقطاعية كانت سائدة فى بيمونتة ونابولى وصقلية . بينما لم تبق فى طوسكانة ولمبارديه إلا آثار لا قيمة لها

إن لم يكن قد نسى أكثرها ، على أنه لا بد من ملاحظة أوجه الشبه بين هذه الدويلات رغم تلك الفروق . فالتفاوت بين بيمونته ونابولى فى إيطالية لم يكن أعظم منه بين البروفنسيين والنورمنديين فى فرنسة ، أو بين البروسيين والبافاريين فى ألمانية ، أو بين الانجليز والإيرلنديين فى إنجلتره ؛ ولكن مما لا شك فيه أن الامتزاج العظيم الذى حدث بين هذه الأجناس المختلفة ووحدة التفكير قد ضمن وجود أساس للاتحاد . وعلى رغم اختلاف اللهجات فى إيطالية ، فإن اللغة كانت واحدة والاسم واحد ، وهناك ذكرى مشتركة لماض مجيد ، يوم كانت روما تحكم العالم . وكانت كل منطقة من مناطق إيطالية تحتفظ بذكريات الرجال العظام ، الذين أنجبتهم إيطالية ، وتفتخر بأعمال روما الخالدة ، وكان لإيطالية أدب مشترك ، وكلها تفخر بدانتى ومكيافيلى .

وعلى الرغم من التحاسد بين بيمونته وجنوة ، وبين نابولى وصقلية ، وبين الرومانى وروما ، وعلى الرغم من تضارب المنافع حتى بين صغار المقاطعات ، فإنه كان واضحاً لدى المفكرين أن الشعور بالمصلحة المشتركة يدفع أجزاء إيطالية المتفرقة إلى اندماج بعضها بالبعض الآخر ، لتكوين إيطالية الموحدة . ويتألف الشعب الإيطالى من طبقات عدة ، وكان الإكليروس البالغ من العدد مائة وخمسين ألفاً يؤلف الطبقة القوية ، إذ كان نفوذه متغلغلا فى جميع الأنحاء ؛ فبإشرافه على المدارس وبسلطته فى مراسم الزواج

وبمقدرته على فتح أبواب السماء قد استطاع أن يسيطر على النفوس وأن يصبح ذا نفوذ لا حد له بين الشعب الإيطالى التدين . فليس مستبعداً والحالة هذه أن تقف الكنيسة بجانب الأمة فى كفاحها ضد الأجنبى ، فقد وجد بين الخوارنة والرهبان وطنيون ، وراح منهم فى كل ثورة شهداء ، وكانت نار الوطنية متأججة فى أديرة لمبارديه وصقلية .

أما الطبقة الثانية فى إيطالية ، فكانت طبقة الأشراف ، وقليل منهم من كان يملك أرضاً ، ويعيش هذا القليل دائماً فى المدن بعيداً عن أملاكه ما عدا أشراف صقلية وكلبريه ، وأخيراً أشراف بيمونته ، وبذلك أضاع الأشراف نفوذهم فى مناطق أملاكهم ، وكثر لقب الكونت فى الشمال وفى الوسط ولقب الدوق والأمير فى الجنوب ، فقلل الكثرة من قيمة هذه الألقاب . وكان الأشراف فى نابولى وفنيسيه وروما متردين معروفين بفساد الأخلاق ، حتى أن أحداً من رجال السياسة لم يفكر قط فى جميع التقلبات السياسية التى حدثت فى ذلك العصر بالدعوة إلى إيجاد مجلس أعيان . أما الأشراف فى صقلية فكانوا أغنياء يتحمسون لما يتحمس له الشعب ، وبذلك كانوا ذوى نفوذ عظيم ، وقُلْ مثل ذلك عن الطبقة الارستقراطية الفخمة فى ميلانو من حيث النفوذ والغنى والقوة . أما أشراف فلورنسه فى طوسكانة فكانوا ينحدرون من أسر التجار فى الجمهورية ، وأما طبقة الأشراف العسكريين فى بيمونته

فإنها استطاعت رغم خشونتها وتأخرها أن تتمتع بميزتها الإقطاعية وبتقاليدها الوطنية المتينة . فيرى الإنسان الأشراف على رأس كل حركة أو ثورة تنشب فى سبيل الحرية ، وكما حق للطبقة المتوسطة أن تفخر ببعض رجالها فلطبقة الأشراف أن تفتخر ببعض — رجالها أيضاً ؛ أما الطبقة الوسطى فهى خير طبقات الأمة ، فقد قوى نفوذها فى العهد الإفرنسى .

واشتهرت (مودينه) بمدارس لتخريج الموظفين ، ومن هؤلاء مهندسون وعلماء ومنشئون وأذكياء أصابهم التوفيق ، ولكن هذه الطبقة كابدت من الاضطهاد أكثر مما كابدته أية طبقة أخرى بعد مؤتمر فينا ، ولم يكونوا يتهافتون على الوظائف المدنية التى لم تبهرهم إذ كان الموظف فى نظرهم رجلا يبيع مواهبه لمضطهدى الأمة . فضلا عن أن الوظيفة فى حد ذاتها لا تفسح أمام المرء مجال التقدم ، فلذلك كان النمسويون فى لمبارديه والأشراف فى بيمونته وكبار الكهنة فى دويلات الكنيسة يتولون أعلى المناصب . أما المشاركة فى الآداب فكان طريقاً شائكا لأن الرقيب كان واقفاً بالمرصاد ، ومع كل ذلك فقد غنيت إيطالية بالكتاب ، وكان لها فلاسفتها وشعراؤها وعلماؤها وقصاصوها ، هذا رغم أن الرقابة كانت تحول دون انتشار الكتب السياسية والاجتماعية والاقتصادية ؛ ومما قيل فى هذا الشأن إن الجرائد الرسمية كانت تبحث فى شؤون الهند واليابان أكثر مما تبحث فى الشؤون الأوربية ، ولا تبحث قط عن

السياسة المعاصرة ؛ وكانت مجلة (اتنالوجيا) هى المجلة الإيطالية الوحيدة التى تضاهى المجلات الأوربية الكبيرة . وكانت التجارة لا مخرج لها ، فقوانين الحماية والحواجز الجمركية وفقدان العملة وتباين الأوزان كل هذه عراقيل تحول دون نموها .

وكان خريجو الجامعات من الشبان يتهافتون على احتراف القضاء أو الطب ، وبذلك يتزايد جيش — المتذمرين من الاضطهاد الاجتماعى الذى يقضى على طموحهم ويصليهم نار حياة عاطلة غير مجدية . وفى إيطالية أربعة وعشرون جامعة تضم أربعة عشر ألف طالباً من أبناء الطبقة الوسطى ، وكانت هذه الجامعات فى طليعة كل حركة قومية تسيطر على الطبقة المثقفة كما أن حياتها الدموقراطية الحرة كانت تهدم الظروف الاجتماعية ، وعليه فإن ارتياب الحكومة منها وإقامة العراقيل فى سبيل تقدمها لم يكونا من دون سبب . حقاً إن الجامعات هى التى هيأت العنصر المثقف الذى قاد الحركة القومية فأنجبت لها المفكرين والكتاب والمحاربين ، فأساتذة جامعة بولونية هم الذين قادوا ثورة ١٨٣١ ، وأساتذة جامعة بيزا وبافيه وجنوه وطلابها كانوا روح حركة التطوع التى جندت القسم الأعظم من الألف الغاريبالديين .

وأخيراً نتحدث عن الطبقه الرابعة ، وهى طبقة العمال ، وهذه لم تختلف حالتها عن حالة الطبقة المتوسطة من حيث الاضطهاد ، ومع أن حالتهم من حيث المعيشة والسكنى كانت غير مريحة ، فإن بساطة

الحياة فى إقليم معتدل واستقرار التجارة جعلاهم بمأمن من الحاجة . وكان عدد العمال لا يتجاوز الخمسة عشر بالمائة من مجموع النفوس ، وكانوا على العموم نشطين أذكياء ، وبعضهم مثقفون ذوو مهارة فائقة من البحّارة ورؤساء العمال ، ففى فنيسة مثلا كانوا من ذوى الثقافة العالية .

لم تكن إيطالية بلداً صناعياً . ولم تزد المدن التى يتجاوز عدد سكانها المائة ألف نسمة عن الست ، ولعل مجموع نفوس العواصم الثمانى لا يبلغ المليون نسمة . ويزاول ستون بالمائة من مجموع النفوس مهنة الزراعة ، ومع ذلك فإن حالة الزراعة كانت متأخرة ، وكثير من الأراضى التى تعد من أخصب أراضى أوربا كانت موبوءة بالملاريا فضلا عن أن الضرر البليغ الذى كانت تلحقه بها الأنهار ، ولم تكن غلة الأرض على العموم بوافرة ، إلاّ إذا استثنينا المراعى الغنية ومزارع الرز فى بعض بقاع لمبارديه وبيمونته وحقول الزيتون والكروم والبرتقال فى بعض المناطق .

وفى حضيض تلك الطبقات نرى طبقة الدهماء البائسة نسيتها الحكومة ، ولم ينتبه إليها الأحرار ، وليس ما يخفف من ويلاتها وشقائها سوى صدقات الأمراء والمستشفيات الشهيرة ودور الأيتام ، ومن هذه الطبقة الفلاحون فى صقلية وفى سهول لمبارديه والقرويون الذين ينوؤن بكثرة العمل والحاصدون المتنقلون من بقعة إلى أخرى جرياً وراء رزقهم ، هؤلاء كانوا أتعس حالا من العبيد

المستخدمين فى الصناعة الإنجليزية ومن القرويين فى إيرلنده . ومن الغريب أن هـذا الشقاء الذى ابتلى به أهل الأرياف لم يلفت نظر الأحرار ؛ وأغرب من ذلك أن حركة تستمد قوتها من الطبقة المتوسطة وتقتبس تعاليمها من مدرسة الحرية القديمة تهتم كثيراً بمساوئ الحكومة أكثر من اهتمامها بأحوال البؤساء الاجتماعية ونذكر هنا أن الحكم النمسوى لم يخل من بعض الحسنات كالنظام القضائى الجيد الرفيع ، والمدارس الحسنة ، أما الحكومة فى طوسكانة فكانت قوانينها الجنائية راقية وكانت تأخذ بطريقة التبادل التجارى الحر وتمتاز الحكومة فى بيمونته بإدارتها النزيهة المستقيمة .

وليس فى إيطالية إذا استثنينا لمبارديه وفنيسية وبارمة أسلوب للتعليم الوطنى ، وكانت القوانين فى بيمونتة ودويلات الكنيسة وفى مودينة مرتبكة ، متأخرة ، قاسية ، تشين سمة العدالة . وكانت المحاكم الاستثنائية فى بيمونتة ودويلات الكنيسة تحمى الإكليروس ولكل دولة محاكم سرية تراقب أية بادرة تبدو كمؤامرة سياسية ، وكثيراً ما تلجأ فى مهمتها إلى التعذيب الروحى والجسمانى . وتقف وراء هذه المحاكم السرية تشكيلات السيبرى (Sbirri[1]) المخيفة الهائلة التى تضطلع بالمسئولية وحدها وأحيانا مستقلة عن الحكومة إلى حدٍ ما ؛ تبث جواسيسها فى المقاهى والمسارح وبين الخدم ، وتستغل كراسى الاعتراف فى الكنائس والمدارس والبريد لكشف الأسرار . فويل لمن يقع فى يدها ،

(١) (Sbirro) سبيرّو : موظف الشرطة السرى .

فهى تستطيع أن تنهى خدمات الرجل فى الجامعة والإدارة والتجارة كما أنها تتمكن من أن تمنعه من السياحة أو أن تحرمه من إرسال أولاده إلى الدراسة فى الخارج فضلا عن أنها كانت تستخدم نفوذها لسحق خصومها الشخصيين .

فإذا علمنا ذلك كله تتضح لنا الأسباب التى أحرجت الطليان فأخرجتهم ودفعتهم إلى الاحتجاج اليائس وقادتهم إلى طريق المؤامرات . حقاً إن الاعتساف الشائن الذى ينزل بالأشخاص والاستهتار بالعدالة والقيود التى لا تطاق والتى فرضت على الحياة الشخصية كل ذلك حفز الطليان على الثورة . وإذا أضفنا إلى ذلك كله فقدان الحياة السياسية فى إيطالية تجلى لنا سوء الحالة إذ كيف يرضى الإيطاليون أن يروا أن لفرنسة وأسبانية والبورتغال مجالس نيابية بينما هم محرومون حتى من الاجتماعات ، ومن حق تأليف الأحزاب السياسية فى بلدهم فضلا عن أن حرية الكلام والكتابة مقيدة . وانتقاد سياسة الحكومة محظور وليس لهم رأى فى الضرائب المفروضة عليهم ولا يستشارون فى المسائل الاشتراعية .

إذن ليس من الإنصاف أن نلوم إيطالى ذلك الحين ، لأنهم إذا كانوا غير متحلين بفضائل المواطن الاعتيادية ولأن عقيدتهم لم تتعد النظريات والمناهج وأنهم قصررا فى الثبات وفى الناحية العملية فإن هذه النقائص كلها نتيجة لازمة لوضعهم المخيف الذى لم يكن يشجع بتثقيفهم ولا — بتدريبهم على احتمال المسئوليات .

الفصل السابع

الكاربوناريون الأخيرون

١٨٢٣ — ١٨٣٢

ظن الناس حين باءت الثورات فى نابولى وبيمونته بالفشل ، وحين قُضى على المتآمرين اللمبارديين أن الحركة الثورية فى إيطالية قد ماتت مع أنها كانت فى حالة التحفز ، والحقيقة أنها دخلت فى طور جديد إذ بدأ رجال جمعية كنجلياتوره يقولون بالعدول عن أسلوب الثورة العمياء على — الاستبداد — إلى حركة منظمة حكيمة ، وليدة تفكير تعنى كثيراً بترقية المستوى العقلى ولا تقتصر على إحداث تبدلات — سياسية .

وكانت الحركة الرومانتيكية فى الآداب تعنى أكثر من مجرد رقىّ أدبى ، وعلى العكس من ذلك المدرسة الكلاسيكية القديمة فإنها ظاهرة أدبية أكثر منها سياسية واجتماعية ، وقد شجع نابليون المدرسة الكلاسيكية لأنها تلائم أهدافه فهى مدرسة تخلو فى أسلوبها من معانى التقدم ، وليس لها مثل عالى ، وتقوم على أساطير روما الإمبراطورية ، والمعلوم أن الألمان قد رجعوا حينذاك

إلى تقاليدهم القومية وأدركوا بعد درس أن للشعوب الأوربية الحديثة تاريخاً وقصصاً وحياة شعبية ، خليقة بأن تنظم فيها القصائد الحماسية والأشعار الغنائية . وأخذت هـذه المدرسة الحديثة فى ألمانية تذكى الروح الاستقلالية ، وتلهم الشعراء المعانى الوطنية ، وتبث فى الألمان روح الإيمان بالوطن الـكبير . وقد وصلت هذه المدرسة التى اتسمت بادئ بدء بطابع التجدد إلى إيطالية ، عن طريق ألمانية وانجلترة بواسطة أساتذتها من أمثال بايرن ومكفرسن وشيلّـر وجوتى ، وكان من نتيجة ذلك أن فعلت الآداب الرومانتيكية فى الطليان ما فعلت بالألمان إذا أرجعتهم إلى ماضيهم ، وأظهرت لهم أن تقاليدهم التى جعلها (سيسموندى)[1] شعبية ، إنما هى تقاليـد جمهورية وحياة مدنية ناشطة وانتصارات دموقراطية على الاقتطاعية الألمانية . وأخذت هذه الآداب تلهم (بركيت)[2] أغانيه عن شقاء إيطالية الدائم ، وكان (مانزونى)[3] حبر الأداب الرومانتيكية الأعظم ، وحملت رواياته الفاجعة بين سطورها تعاليم سياسية وأصبحت الأغنيتان التى نظمهما فيهـا أناشيد لمسير المتطوعين . وفى إحدى رواياته الشهيرة راح يبحث عن إيطالية

---

(١) Leonard Sismondi لئونادر سيسموندى مؤرخ واقتصادى سويسرى مؤلف كتاب تاريخ الجمهوريات الإيطالية .

(٢) Gioani Berchet جيوفانى بركيت كاتب وشاعر شعبى إيطالى .

(٣) Alessandro Manzoni الساندرومانزونى شاعر وقصصى إيطالى

التى حرمها التسلط الأجنبى والطغيان الاجتماعى من الطمأنينة ، وكانت كتبه مشبعة بالروح الدموقراطيـة ، وكان يرى أن الزمن الذى يعيش فيه يلائم الثورة ، وأن البلد فى حاجة إلى معالجة معنوية تؤدى إلى بعثه ثانية ، وأن المسيحية العملية والعدل وإنكار الذات هى التى تؤدى إلى جادة الحرية .

وأسس الـكتبى الفلورنسى (فيوسّـو) و (كابونى) أحـد الأشراف الأحرار مجلة (انتولوجيا) سنة ١٨٢٠ ، وكانت على صلة وثيقة بمانزونى ومدرسته . وعلى الرغم من ضيق انتشارها فإن تأثيرها كان كبيراً ، وقد اشترك فى تحريرها أهم الـكتاب فى إيطالية ومن بينهم (مازينى) وكان يرمى إلى « تصوير الهيئة الاجتماعية الإيطالية ووصف حاجاتها الروحيـة والأدبية ومساعدة إيطاليـة على معرفة نفسها بنفسها » « وإيجاد مثل أعلى للطليان غير ضيق ولا محلى ولـكنه مثل قومى واسع . » ومن ذلك يتضح أن المجلة أصبحت سياسية تتعدى حدود عمل مانزونى . وقد وجهت أعظم عنايتها إلى الإصلاحات الاجتماعية ، وكانت فى أكثر المناسبات لسان الوطنيين المعتدلين ينذرون به ويبشرون . والتف حول المجلة جماعة يتحمسون أكثر كثيراً لدانتى ، ومؤرخون كانت مدرستهم ترمى إلى جعل الآداب الرومانتيكية مجالا للتغنى بأمجاد إيطالية القديمة والدعوة إلى إحيائها وأخذ (كارلو تدوبا) من نابولى و (قيصر بالبو) من تورينو و (كبّـونى) من فلورنسة

يعلمون مواطنيهم تاريخهم فى القرون الوسطى . وكان (روسّينى) و (بركيت) ينظمان فى منفاهما الأناشيد الوطنية وينشئان الكتابات الحماسية ضد البابا والأمراء . وقد ظهرت أول بوادر المقاومة من قبل الشاب (جيرازى Guerrazi)[1] المحامى فى ليفورنه ، وكان هذا الكاتب كالآخرين يقتبس رواياته التمثيلية ومسرحياته من الحوادث العظيمة التى جرت فى إيطالية فى القرون الوسطى ، وكانت كتاباته الشديدة تنبعث من قلب كريم ، ناقم على الاضطهاد ، وينبعث من بين سطورها صوت النفير ، يؤذن بموعد القيام والقتال ، وعلى الرغم من أن مازينى كان من أنصار الرومانتيكية فإنه لم يقصر فى انتقاد الرومانتيكية الإيطالية ، وكان يرتأى أن تصبح الحركة الرومانتيكية بأجمعها وطنية إيطالية . فالفروق إذن بين مانزونى ومازينى أن الأول كان يعتقد بالإصلاحات السياسية إنما تتم بإصلاح الفرد أولا ولكن الثانى كان يرى عكس ذلك ويقول بأن إصلاح الفرد دائماً نتيجة للإصلاحات السياسية ، ولذا فهو يود أن تكون الرومانتيكية ساحة قتال للحرية وللاستقلال .

وهكذا صارت الرومانتيكية موضع نقاش تتفرع منه مدرستان حرتان فى السياسة الإيطالية ، وكانت فى الوقت نفسه بشيراً بتكوين إيطالية الفتاة والوطنية المعتدلة ، إلا أن تأثير هانى مجال

---

(١) Gurrezai كاتب وسياسى إيطالى .

السياسة لم يظهر إلا قليلا ، ذلك لأن مانزونى كان يرى أن الإصلاح الأدبى يحتاج إلى الزمن ، أما مازينى فكان إذ ذاك مجهول الاسم فى السياسة وكان الكاربوناريون لا يزالون يقبضون على ناصية الحركة الإصلاحية . ولما فشلت الثورة فى نابولى نقلوا مقرهم الأعلى إلى باريس ، كعبة الدموقراطيين فى أوربة . ولم تبق جمعية الكاربوناري إيطالية لحماً ودما فرغب رؤساؤها (لافايت وبيه والأمير لويس فليب) فى تأسيس عصبة من الأمم اللاتينية تقف فى وجه الحلف المقدس . وقد أضاعت الجمعية حماستها الأولى بعد أن أصبحت لا تمثل إيطالية وحدها بل فرنسه أيضاً ، وفقدت أهدافها الدينية والأخلاقية ، وشعرت بأنها غدت أداة بيد رجال لا يتحمسون للدموقراطية إلا قليلا .

وعلى الرغم مما بين الكاربوناريين والروماتيكيين من خلاف ، فإن الحقد على النمسة كان يؤلف بينهم . وكانت حركات سنة ١٨٢٠ — ١٨٢١ قد سوغت النمسة الادعاء بضرورة مراقبة السياسة الداخلية لشبه الجزيرة ، وجعلت نفسها بعد مؤتمر (لايباخ وفيرونه) الوصية التى اختارتها الدول لحماية العروش فى إيطالية ضد الثورة ، وساعدتها على ذلك الظروف السياسية فى أوربة حينذاك . ثم شرعت تعمل على تقوية مركزها بعد أن أمنت من كل تدخل خارجى ، فراحت قواتها تحتل نابولى وانكونه ، وأخذت تطالب بإلحاق طوسكانه إذا أصبح آل لورين بلا عقب ، وأخذ

عملاؤها من الجواسيس والكرادلة والضباط والقضاة يعملون فى كل دولة لحسابها . وعلى الرغم من أن الملوك والأمراء فى إيطالية كانوا يتهافتون على طلب المعونة من النمسة حين تنشب الثورة فى بلادهم فإن حماستهم كانت لا تتحمل مزاعم النمسه فى أن يكون لها الحق فى السيطرة عليهم . فأحبطت مساعى بيمونته وروما مساعى النمسه فى تأسيس عصبة بريد مشتركة ، وأخذ شارل فليكس ملك بيمونته وفرنسوا الأول ملك نابولى يدبران الدسائس لسحب جيوش الاحتلال ، أمادوق مودينه فرسم خططه لتوسيع ممتلكاته لحساب النمسه ولقى فى الكنيسة حليفا له .

وكانت جمعيات السانفيديست الدينية على اتصال شديد بجمعية (كلدويرارى) فى نابولى والجمعية الكاثوليكية فى بيمونته ؛ ومهما كان الرجعيون متعصبين فقد كانت الشمائل القومية تجعلهم ينظرون إلى النمسة شزراً . ويظهر أن ملك نابولى قد عقد نوعاً من الاتفاق مع الكراداله الزيلانتى فى بلاط البابا ، كما أنه اتفق فى الوقت نفسه مع ملك بيمونته لتقسيم إيطالية مجدداً تقسيما لا يرضى النمسه ولا أسرة لورين المالكة فى طوسكانه ، وفى سبيل ذلك أخذ يتقرب من الكاربوناريين ولا سيما فرع هذا الحزب من جماعة Guelfi الذى ظل مرتبطاً بالبابوية يريد أن يجعل منها قاعدة للحركة القومية .

وعملت هذه الأحزاب على بث روح الاستياء بين الشعب حتى أصبح الانفجار أمراً لابد من وقوعه إن عاجلا أو آجلا . وكانت دويلة الرومانى الملجأ الذى تركزت فيه كل المؤامرات ، وحال دون نشوب الثورة فى دويلات البابا وجود حكومة (كنسالفى) فى روما وعدم انحياز جيشها الى الكاربوناريين ولكن سوء الإدارة فى هذه الدويلات بلغ حداً لايطاق . وحدث فى مثل هذه الظروف أن مات البابا . فسارعت النمسة وفرنسه إلى السعى الحثيث لانتخاب البابا من أنصارها ولكن البابا الجديد جاء خصما للنمسه ثم مات بعد أن حكم ست سنوات ، فبذلت النمسه كل جهدها فى بابا من أنصارها ولكن لم يلبث أكثر من سنة واحدة حتى مات فسارع الكرادلة الزيلانى أنصار فرنسه إلى انتخاب مرشحهم سنة — ١٨٣١ باسم جرجوار السادس عشر .

وفى عهد هذا البابا بلغ الشغب فى الولايات البابوية حده الأقصى . وكان الكاربوناريون قد انبثوا فى الايالات الواقعة وراء الأبنين وأخذ الموظفون وأفراد الشرطة أنفسهم ينتمون إلى الجمعيات السرية ، ونشبت الثورة فى بعض المدن جهارا ، واستطاع الكاربوناريون فى باريس أن يقبضوا على زمام — الحركة فى الشمال وفى الوسط . ولما ارتقى الأمير (لويس فليب) على عرش فرنسة تبنى المؤامرة الإيطالية فانتشرت بسرعة حتى إن الدوق فرنسوامير مودينه كان مستعداً أن يحارب النمسة أو أن يحمل على الشروع باقتسام

أملاك البابا شريطة أن تساعده فرنسه . وراح يتشاور مع رؤساء الأحرار فى مودينة فى هذه الأمور حتى إن وطنيي شمال إيطالية البسطاء أخذوا يرون فيه الرئيس الملكى المنتظر . وقامت فروع الكاربوناري فى بولونيه وروما تدبر العصيان وحددت وقت الانفجار فى بداية شباط « فبراير » إلا أن فرنسوا رأى أنه ركب مركباً خشنا ، وهنالك ما يدل على أنه خان شركاؤه اجتذابا لعطف النمسة ، ولما نشب الاضطراب فى روما قبل أوانه وتمكنت الحكومة من قمعه قرر الدوق فرنسوا العمل فأحاطت جنوده ليلة ٣ شباط ١٨٣١ — بدار مينوتى من رؤساء الأحرار فى مودينه وقبضوا عليهم ، وفى اليوم التالى ثارت بولونية وانضم إلى الكاربوناريين كثير ممن لم يكونوا يتحمسون لهم أملا فى الخلاص من حكم الكنيسة فتآخى الجنود والثوار أو أنهم انسحبوا خائفين ، أما فرنسوا فلما أطلع عل هذا الخبر فر هارباً ومعه المقبوض عليهم وسارت خلفه دوقه بارمه ، وأصبحت بذلك البلاد من بولونيه إلى بياسنزه فى أيدى الأحرار ، وكذلك التحقت الرومانى أيضا بالثورة التى اندلع لهيبها فى أنحاء كثيرة وامتدت مسافات شاسعة .

وحين تقدم جيش الأحرار بقيادة (سركونيانى) اندلع لهيب الثورة فى جميع ممتلكات البابا ، ومال موظفو البلديات ومأمورو الدولة إلى الأحرار حتى إن كثيراً من الرهبان وبعض الاساقفة اظهروا ميلا نحو الثورة ، وأعلنت الحكومة المؤقتة فى

بولونيه الغاء حكم البابا ، وأمرت بالشروع بالانتخابات لعقد مجلس الامة ، وقد وصل إلى بولونيه مندوبون من جميع الانحاء وعينوا أهدافهم القومية فى تلك الحركة ، فأطلقوا على المجلس اسم «مجلس نواب الايالات الإيطالية المتحدة » وفى اليوم التاسع عشر من شهر شباط حينما عسكر جيش سركونيانى على مقربة من روما طلبت إليه حكومة بولونيه أن لا يتقدم لأنها كانت تشك فى صداقة أهل روما . وكانت الحكومة فى روما على غاية من الارتباك ، وليس لديها من القوة ما تستطيع بها المقاومة ، وحدثت اضطرابات فى المدينة نفسها فتأهب البابا لترك المدينة واستعد وزيره الأول برنيتى لمفاوضة الثوار .

وفى هذا الوقت الحرج كانت القوات النمسوية فى طريقها لإنقاذ السلطة البابوية من مؤتها المحتم ، وكانت الثورة قد اعتمدت على مساعدة فرنسة بأن تحميها أمام كل تدخل خارجى ، ولكن المبدأ الذى اتفق عليه فى ثورة تموز السابقة يقضى بألا تتدخل دولة فى الحوادث الداخلية لأية دولة أخرى ، من أجل ذلك أعلنت فرنسة أنها لا تسمح بإخلال ذلك الأساس ، وكانت قد ساعدت اللاجئين الطليان على الدخول فى الرومانى ، ووعدت بأن تشهر سلاحها فى وجه النمسة إذا تدخلت هذه فى شؤون الطليان الداخلية إلا أنها أرسلت فى الوقت نفسه إلى مترنيخ رسالة سرية تؤكد له الأهمية لما صرحت به . فاستولى النمسويون بسهولة على بارمة ومودينة ،

وعاد الدوق بحراسة الحراب النمسوية ، وكان أول عمله أن صلب مينوتى زعيم الأحرار فى مودينة . أما الجنرال زوكى قائد جيش الثوار فى مودينة فانسحب إلى حدود الرومانى وبدلا من أن تسمح حكومة بولونية بدخول الجيش الثائر فى بلادها فإنها تمسكت بأساس « اللاتدخل » ، وانتظرت عبثاً مساعدة فرنسة ثم اعتبرت جنود زوكى محاربين ، فجردتهم من السلاح ونقضت بذلك عمل المجلس فى اطلاقه اسم أيالات إيطالية المتحدة ، على المناطق الثائرة ، ولم يلق النمسويون أية مقاومة فى احتلال بولونية ، إلا أنهم حين توغلوا فيها اصطدموا بجيش زوكى الضعيف فارتدوا على أعقابهم ، بيد أن حكومة بولونية الموقتة كانت قد استسلمت أمام رسل البابا لقاء وعد ضعيف بالعفو ووقعت شروط الهدنة وبتسريح جنود زوكى وسركونيانى ؛ وبهذا انتهت الثورة على الصورة المخزية بعد أن دامت ثلاثة أسابيع .

ولما أخضع النمسويون البلاد لحكم البابا أعلن برنيتى رئيس حكومة البابا فى روما أن دوراً جديداً لحكومة روما سيبدأ ، واستهل هذا الدور برفض شروط الهدنة وإصدار الأمر إلى جنوده بقتل أهل ريمنى إحدى المدن الثائرة ، ولما انتهى دور الثورة وبدأ دور المناورات السياسية بين الدول لحماية ممتلكات البابا أخذ الرأى العام فى فرنسة يبدى استياءه من كون النمسة وحدها تأخذ على عاتقها حماية البابا ، وأصبحت سياسة فرنسة تستهدف اجلاء

النمسويين عن الرومانى وحث البابا على القيام بالإصلاحات لتهدئة الخواطر فى بلاده . أما مترنيخ فكان يريد أن يساعد البابا فى مقاومة الأحرار ولم تطق الدول الأخرى أن ترى القضية أصبحت نزاعاً بين فرنسة والنمسة فاجتمع ممثلوها فى روما للنظر فى كيفية حمل القوات النمسوية على الانسحاب من الميدان الإيطالى ، والعمل للقضاء على مساوئ الحكومة التى كانت سبب الاضطرابات ؛ وعليه فقد أخبرت انجلتره وفرنسة وبروسيه على ضرورة القيام بإصلاحات واسعة ولكن النمسة وروسية خالفتا فى ذلك ثم تظاهرتا فيما بعد بالموافقة ووقعتا مذكرة قدمتها الدول للبابا تطلب إليه تعيين موظفين علمانيين فى الوظائف المدنية والمحاكم ، ولعل انجلترة الوحيدة التى كانت صادقة فى توقيعها المذكرة ، وسرعان ما أخذت النمسة وروسية تتأمران على المذكرة ، فاكتفى برنيتى بالوعد بتأسيس المجالس فى الولايات وتوظيف العلمانيين ، وانسحبت على ذلك القوات النمسوية من ممتلكات البابا .

وشاهد الناس انسحاب النمسويين وسرعان ما شبت نار الفتنة فى الرومانى ثانية ، وامتنع الناس عن دفع الضرائب واستقالت الحكومات فى بولونيه ورافيته وفورلى ، وكان أهل الرومانى على استعداد لأن يتخلوا عن الانفصالية على أن تقبل روما المنهج الإصلاحى المعتدل . وكان جواب روما على ذلك أن أمرت بإغلاق

الجامعات سنة وزادت ضريبة الأملاك . فاجتمع مندوبو الولايات الثلاث وعقدوا المجلس ، ومعنى ذلك أنهم جهروا بالعصيان ، وشجعت الدول باستثناء انجلتره برنيتى على أن يطلب إلى الثوار الخضوع بلا قيد ولا شرط . وكانت فرنسة تصر على أن يجرى قمع الثورة من قبل جنود البابا خشية تدخل جنود النمسة .

فوجه برنيتى جيشاً قوياً لضرب الثوار وقد استطاع بعد مقاومة الثوار العنيفة أن يتغلب فى سيّسنة بدك المدينة بكنائسها ، ونهبت مدينة فورلى ، وأوشكت بولونيه أن تكابد المصير ذاته لولا أنها استقبلت القوات النمسوية حين اقتربت منها باعتبارها حامية فأصبحت فى مأمن من شر القوات الباباوية .

علمت فرنسة بذلك فأرسلت هى أيضاً جيشاً لاحتلال أنكونة فحيا الأحرار الإفرنسيون هـذا العمل واعتبروه ممهداً لحرب استقلالية لإنقاذ إيطالية ، ولما دخلت القوة أخلى قائدها سبيل المسجونين السياسيين بينما كان الجنود ينشدون نشيد المارسيز ، ولما هدد برنيتى بقطع العلاقات السياسية مع فرنسة ولوحت روسية لفرنسة بالحرب خمدت حماسة الحكومة الفرنسية وتفاهمت مع النمسة على ضريح آمال الأحرار .

فشلت الثورتان فى الرومانى لأن الذين قادوا الحركة فيهما لم يكونوا ذوى خبرة ، وكان معظمهم من — الحقوقيين والمعلمين

الذين يجهلون خفايا السياسة والذين كانوا يحاولون تحريض الناس بالأمثال والحكم غير آبهين بالقوى المعنوية التى هى روح كل ثورة وكانوا بعيدين عن فهم روح الشعب وكان الرئيس أوجينى طاعن السن ، ضعيفاً ولم يكن الجنرال زوكى يثق بالمتطوعين ، أما الجنرال ارماندى فكان يبحث عن الوحدة الطليانية كأنما يبحث عن طوبى ، فليس غريباً إذن أن نرى الشعب الذى حيا الثورة بحماسة أبان نشوبها عاد غير مهتم بها بعد فترة قصيرة .

الفصل الثامن

مازينى وإيطالية الفتاة

(١٨٣٢ — ١٨٤٤)

لقد كانت خيبة مرّة تلك التى منى بها الأحرار واعتبر شبانهم هذا الفشل إهانة لهم ، إذ كيف استطاع بضعة آلاف من النمسويين أن يسحقوا الوثبة القومية بتلك السهولة ، والأنكى من ذلك الموقف الجامد الذى وقفته الجماهير من الثورة ، أضف إلى ذلك عجز الرؤساء الذين برهنوا على أنهم غير أكفاء لمثل هذا العمل ، وهكذا فإن الكاربونايين قادوا الثورة مرتين وفشلوا فى قيادتها ، وإذن فلا بد للحركة من تنظيم جديد يكون أكثر حيوية وأعظم كفاية ، وهنا يأتى دور (جيزنة مازينى) الشاب الناقد الأدبى الذى ترأس ذلك التنظيم .

ولد مازينى فى جنوه سنة ١٨٠٥ ، وكان لايزال غلاما حينما اشترك فى تحرير مجلة أنتولوجيا ، ثم اشتهر بخطته الثورية التى وضعها فى سجنه فى قلعة (سافونة) ، وكان يرى أن سبب فشل ثورة الكاربوناريين ناشئ من أن الرؤساء الذين تولوا زمامها كانوا رجالا محدودى الكفاية والإبداع ، فانتخبوا للرئاسة أناسا

لا تؤهلهم مزاياهم للعمل ، وإنما روعى فى اختيارهم إما شيخوختهم أو علو مرتبتهم ، ولم يكن لديهم أى منهج معد ليباشروا تنفيذه فور إسقاط الحكومات المستبدة ، ولم تكن لهم أهداف اجتماعية اللهم إلا فيما يتعلق بحرية الصناعة وطريقة الاشتراع والتعليم ، وكان من الممكن أن يكون النجاح حليفهم لو تولت الأمور حكومة حرة ، فالاستبداد بنظر مازينى لايسحق إلا بثورة يتولى زمامها رؤساء مملوؤن إيمانا وعزما ، وكان يعتقد أنه قد آن الأوان لبروز أفكار جديدة ورجال جدد ، وكان شعاره فى ذلك : « اتركوا المجال للشباب » ثم يؤيد ذلك بقوله « ضعوهم على رأس الثورة وأفهموهم بأن عليهم واجبا نبيلا » يجب أن يؤدوه ، وأذكوا فى نفوسهم نار الحماسة ، وأقنعوهم بمقدرتهم ثم اقذفوا بهم فى وجه المنسوبين » .

أطلق مازينى على تنظيمه الجديد اسم إيطالية الفتاة وجعله سريا وطلب إلى الأعضاء أن — يعملوا حسب اقتناعهم الشخصى أى أنه لم يطالبهم بالطاعة العمياء التى يتطلبها الكاربوناريون من الأعضاء ، وكان يرى أن تستهدف سياسة تربية الشعب إلى تربية ثقافية واجتماعية ، وألا تقر عملها على تحرير إيطالية دون العمل فيما هو أبعد من ذلك . ولما هرب من سجنه سنة ١٨٣١ والتجأ إلى فرنسه ، وراجت كتاباته فى جميع أنحاء إيطالية ، أخذت مدرسته الجديدة تقوم مقام الكاربوناري ، إذ خلب منهجه الشباب الطلياني

الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ظهور الزعيم . وأخذ أنصاره يزدادون يوما فيوما ، وكان يعظ تلامذته ويطلب إليهم العمل باتحاد ونشاط ، وبذلك يتم الاستعداد للثورة بالعدة الكاملة والهمة العالية . يرى أن الثورة لايمكن أن تنجح من دون اشتراك العامة فيها ، أى أنه كان يعمل فى سبيل شعبية الحركة ، وكان يطلب إلى الأحرار بأن يضعوا الأهداف الاجتماعية نصب أعينهم ، ويقول لهم : « قولوا للشعب إنكم تريدون إنقاذه من استبداد الملوك والأمراء ومن إهانة الموظفين ومن اضطهاد الأشراف والأغنياء ، وحين ترونه أخذ يتململ حينئذ فقط ، ولّوا وجوهكم شطر لمبارديه وبشروا بالحرب ضد التسويين» ولم يكتف مازينى بخطابه للأحرار بل إنه وجه نداءاً حاراً للكتاب طلب إليهم فيه أن يتفرغوا للعمل المثمر ، وأن ينفذوا بأدبهم إلى قلوب الشعب ، وأن يذكروه بتاريخه فى الكتب والنشرات ويبينوا لهم أن هدف إيطالية الجديدة هو بعث إيطاليا الدموقراطية المنظمة .

فإيطالية الجديدة على هذا الطراز يجب أن تكون جمهورية غير مجزئة ، لأن حالة إيطالية وتقاليدها وجميع ذكرياتها الخالدة متمركزة فى فكرة الجمهورية .

يرى مازينى فى الجمهورية مثلا أعلى للحكم الكفيل بإلغاء كل الامتيازات ويجعل الاهتمام بشئون الفقراء من أول واجبات الدولة

فى الجمهورية يفتح العلم آفاقاً واسعة للرقى والتقدم ، واقتنع مازينى بأن الشعب إذا وضع هذا نصب عينيه فلسوف يهب بأجمعه لطرد النمسويين .

وكانت الوحدة الإيطالية فى نظر مازينى أثمن من الجمهورية . وقليل من الناس من يعتقد بإمكان الوحدة حينذاك ، لأن الحياة الإقليمية كانت قوية جداً ، ومع أن الأحقاد بين الأيالات كانت آخذة بالتقلص إلا أنها لا تزال مستحكمة فى النفوس ، حتى يستحيل زوالها فى جيل واحد . فكل عاصمة تفتخر ببلاطها الصغير وكل جيش مرتبط بأميره ولا يعبأ بإيطالية . أما البابوية فظلت الخصم الذى لا يقبل التفاهم حول بعث دولة إيطالية عظيمة ؛ أما آل صافويه فقد استهدفوا مملكة فى شمال إيطاليه ولم يفكروا باندماج الوسط والجنوب بالشمال . لقد كان مازينى مؤمناً بإمكان بعث إيطالية الموحدة التى تقود الشعب من فوق الأحداث الراهنة نحو هدف أرفع من خطة الاتحاد الذى كان ما يزال الأمل القومى الأعلى نحو شىء كان يبدو عسيراً بعيد المنال . وبشر مازينى برسالة الوحدة حتى أصبحت إنجيل الأمة وسرى إيمان مازينى إلى الناس الذين أخذوا يعتقدون أن إيطالية لن تستطيع أن تكون قوية إلا بالوحدة وحين تصبح روما عاصمتها فستتبوأ مركزها فى مصاف الأمم الأوربية .

وبدهى ألاّ تكون إدارة الثورة لمثل هذه الأهداف غير جمعية

سرية ، على أن الجمعيات السرية لم تحقق آمال مازينى كلها لأنها على العموم لم تكن تستطيع أن تقف أمام ذهب الحكومة وسلاحها . ومع ذلك فإنها استطاعت أن تقوم بدعاية واسعة النطاق ، ولقد قامت فى وجه مازينى منذ شرع يعمل إلى آخر أيامه الصعوبات التى تجابه كل ثورة ، وليس ممكناً أن يقف شعب أعزل غير منظم أمام الحراب والمدافع . ولم يقدر مازينى رغم عزمه أن يدير دفة الأمور ، وقد حمله الأمر الواقع على الاعتراف بشدة محافظة إيطالية ومع هذا كله فإنه خلق إيطالية إذ استطاع بدهائه ورأيه أن يدفع الناس إلى الأعمال العظيمة ، الأمر الذى لا يتم إلا بالتجرد عن المنافع . وكان من تأثير رسالة مازينى أنها أذكت نار القومية الإيطالية ووجهت السياسة الإيطالية نحو العمل للاستقلال ، وجعلت الاحتلال الأجنبى أمراً لا يجوز التساهل معه أبداً ، وكان مازينى كأكثر الكاربوناريين يعتبر بيمونته مصدر الشروع فى الحركة القومية ؛ فأخذ أكثر الوطنيين بصيرة — يعتقدون أنها مهد آمال إيطالية ، ويدعون إلى هذه القاعدة عدا تلك المقاومة العنيدة التى كان بيت صافويه المالك يبديها ضد محاولات النمسة لاستمالته إلى جانبها . والقوة العسكرية فى هذه المملكة الفتية وتشبع مدينة جنوة بحب الحرية ، وقرب ميلانو من الحدود النمسويه وإيمان الأمير شارل البرت اليقظ ، كل هذه العوامل جعلت بيمونته منارة الطموح الإيطالى وشجعت الآمال فى إيطالية

تلك الثورة التى نشبت فى أسبانية وبلاد اليونان ، فكانت ذات صلة بحركة الكاربوناري الجديدة . ودبرت سنة ١٨٣٠ مؤامرة للحصول على الدستور اشترك فيها رجال من الجيش ومن المحامين ، وفكر المتآمرون ثانية فى دعوة شارل البرت إلى رعاية الحركة ، إلا أن آمالهم ذهبت أدراج الرياح فأجل تنفيذ المؤامرة ثم اطلعت عليها الحكومة فقضت عليها .

وفى تلك الأيام مات ملك بيمونته وارتقى العرش شارل البرت إلا أن ارتقاءه لم يتم من دون معارضة ، فقد أرادت النمسة أن تستفيد من موت الملك من دون عقب فرشحت الدوق فرنسوا أمير مودينة زوج ابنة الملك السابق فيكتور عمانوئيل ، إلا أن فرنسة هددت بإعلان الحرب إذا تبوأ العرش أمير نمسوى . وقد تردد مترنيخ كثيراً عن رضائه من تبوئ شارل البرت العرش ولذلك فإنه حين عودته من فرنسه اضطره مترنيخ إلى البقاء فى فلورنسة مدة طويلة واقترح على دول الحلف أن يتعهد أمام مؤتمرها برعاية القانون المتعلق بالنظام الملكى والمحافظة عليه ، ولم يساعده مترنيخ على العودة إلا بعد أن أثبت بأنه حارب مع الجيش الإفرنسى ضد الأحرار الأسبان . ولما عاد إلى تورينو وعده فى حكم المملكة باستشارة المجلس الرجعى وأن يحافظ على قانون المملكة الأساسى . ولم يكد شارل يرتقى العرش حتى بدأ عهده باضطهاد الأحرار مما دعى الشاعر الموسيقار بركيت أن يكتب من منفاه : « تحت أى سماء تكون أيها الخائن فلعنة المنفى تنزل عليك » .

قضى هذا الملك حياته فى مناورات مع الأحرار ، فكان مستبداً قلباً وقالباً ، وكان يصرح بأنه لا يقر الثورة أبداً ، وكان يكره الحكم الدستورى بحجة أنه يؤدى إلى تشاحن الأحزاب ويخل بالانسجام القومى . ورغم كونه مستبداً فقد كان يخضع أمام كل وزير ذى عزيمة ، وكان يتجنب اتخاذ القرارات الحاسمة ، لذلك رمى بالتردد . وكان موقفه من مجلس الوزراء موقف الجبان ، فكلما رأى معارضة أجل القرارات ورتب الأمور بصورة يضطر الوزير معها إلى الانسحاب خشية مناقشته « أليس من عجائب الدهر أن يعتبر هذا الملك زعيما لحركة كان يكرهها ؟ ولما جلس على العرش توقع الأحرار منه اصلاحات عظيمة ، تستهدف الخير » ولو أقدم على مساعدتهم لكان منح الدستور للأمة ، وكان يعلم أن النمسة تشهر الحرب عليه إذا رأت بيمونته تسير على النظام الدستورى ، ومن جهة أخرى كان متمسكا باليمين الذى أقسمه أمام الحلفاء فلذلك أبقى فى الوزارة الأعضاء الرجعيين وعين مجلساً للدولة لا قيمة له ، وخابت آمال البلاد حين رأت الوزارة الرجعية ، ووجه ما زينى رغم نزعته الجمهورية إلى الملك رسالة يطلب إليه فيها بأن يكون على رأس الوطنيين وربما كان ما زينى غير مخلص للملك بكتابته تلك الرسالة إذ كان يتوقع أنّ رفض الملك ما كلفه إياه — يزيل من نفوس الطليان الثقة بالملك والاعتماد عليه ، وكان جواب الملك أن أصدر على صاحب الرسالة حكماً صارماً ، فما كان من ما زينى إلا أن

دعى إلى الثورة وكان فريسة أوهام المنفى إذ خيل له أن البلاد على أبواب الثورة فيكفى أن تنفخ إيطالية الفتاة فى صورها حتى يهرع أفواج المتطوعين للحركة ثم ينظم الجيش البيمونتى إلى الثوار ويستولى على لمبارديه ويكون شارل البرت بين أمرين : إما أن يترأس الحركة وأما أن يرضى بالخلع . فما أسرع ما اكتشفت الحكومة هذه المؤامرة ولجأت إلى القسوة فى البطش برجالها . فتألفت المحاكم العرفية وجاء دور من الإرهاب يقوم على التعذيب والقتل ، وكان الملك بنفسه يلح على الحكام بإصدار الأحكام القاسية ويعدهم لقاء ذلك بالأوسمة ، وكان هذا الدور من أسود صحائف التاريخ فى بيمونته لكن مازينى لم يحفل بكل ذلك وأعد ثورة ثانية واجتمع فى سويسرا سبعمائة من المبعدين من جميع الأقطار وزحفو على إيالة صافويه وكان على رأسهم الجنرال المنفى « رمارينو » بينما حاول — غريبا لدى البحار الشباب أن يثير الأسطول ، وأضاع بطء رمارينو وعجزه الفرصة وتشتت القوة أثر بعض مناوشات لم ترع فيها الأصول والدقة وذلك فى شباط سنة ١٨٣٤ .

ونشطت آمال الأحرار والدموقراطيين فى حزب إيطالية الفتاة فى نابولى عقيب موت الملك فرديناند سنة ١٨٢٥ وارتقاء إبنه فرنسوا على العرش ، وكان قبل ذلك نائباً للملك فى صقليه فشجع فيها بعض الأفكار الحرة واشترك فى مؤامرة سنة ١٨٢٠ ، ولكنه لم يكد يتولى الملك حتى انصرف إلى الملذات تاركا شؤون الدولة بيد المحسوبين

عليه ، وأمعن نائب الملك الجديد بصلقية فى اضطهاد الأحرار ونشب عصيان فى « البلانتو » فأسرع قائد كان قد اشترك فى ثورة ١٨٢٠ إلى قمع العصيان بالنار والحديد وقطع رؤوس — الزعماء وعلقها على أبواب بيوتهم ، ورغم ذلك فقد ظل الشعب يطالب ملوكه بالإصلاحات ، فلم يكد يتولى فرديناند الثانى العرش بعد موت أبيه فرنسوا سنة ١٨٣٠ حتى انتقد على ملأ من الناس سياسة أبيه فنشطت الآمال ثانية وجهل الشعب أن هذا الأمير لم يخرج عن كونه من أسرة بوربون العاتية ، ولما كان الملك متدينا فقد تسلط الرهبان على البلاط وأخذوا يأمرون وينهون ، فحلوا محل المحظيات اللاتى كن يحكمن فى عهد أبيه ، ومع هذا فإنه أجرى بعض الإصلاحات فى السنوات الأولى من حكمه ليصلح بعض ما أفسده أبوه من الأمور فاهتم بالسكك الحديدية وأعاد تنظيم المالية فزادت الثقة بالتجارة وقويت آمال الأحرار حتى أن بعضهم فى مدينة بولونيه . طلب إليه أن يتزعم الحركة القومية ، ورغم رفضه طلب البابا إليه باتخاذ التدابير ضد الجمعيات السرية فإنه اقترح على الحكومات الإيطالية التحالف فى سبيل قمع الثورة ، فهذا جزاء الأحرار الذين علقوا عليه الآمال ، وكان من جملة ما طلبه إلى المعلمين أن يعلموا تلاميذهم أن الثورة أمرّ من القتل وأن الملك بحل من تعهده بتحديد سلطاته ، وكان الوزراء ألعوبة بيده فشجع الخصومات الشخصية فيما بينهم ليجعلهم طوع أمره .

لم تنظم طوسكانه فى الحركة إلا قليلا ، وحين غيرت الشرطة فيها خطتها المعتادة وأخذت تستعمل الشدة عم الاستياء حتى أن الحكومة نفسها طلبت إلى الشرطة أن تخفف من شدتها وأن تستعمل اللين ، ولم يرق ذلك فى أعين النمسة ولولا اعتراض الوزير الأول فى طوسكانه ومقاومته لكانت القوات النمسوية قد — احتلت البلد . ومع ذلك اضطرت الحكومة إلى منع مجلة انتولوجيا من الصدور بإيحاء من النمسة وروسية .

أما فى مودينه فكانت الرجعية هى السائدة وقد زاد عدد ضحايا الدوق فرنسوا فى السجون والمنافى ، وكانت جريدة صوت الحق تنشر فى أعمدتها بضرورة التنكيل بالأحرار تقول : « إن الله قد خلق جهنم وأقرب الامر إلى التقوى ذلك الذى يجعل من وزيره الأول جلاداً » ، أما الأحرار فيجب أن — يقتلوا كما يقتل أعداء الهيئة الاجتماعية ولو وافق قيصر روسيه لتم نفيهم إلى سيبريا أفواجاً أفواجاً ، وكان حكم الشرطة واضطهادها يفوق الوصف فكانت تقبض على الاشخاص بلا سبب وتتحرى البيوت وتتدخل فى الحياة الشخصية وهكذا وضعت الرعية فى فزع مستمر ، وكان أقل تعبير عن الآراء الحرة يكفى لإزالة صاحبه من الوجود .

أما فى دويلات الكنيسة فكان العهد الجديد الذى فتحه البابا جرجوار عهد اضطراب قائم ، وكان البابا يقاوم بنفسه كل مؤتمر علمى ويمنع تمديد السكك الحديدية فى ممتلكاته لأنه يزعم أن ذلك

يخالف الدين ولأنه يعتقد أن السكة الحديدية تسهل مجيء الوفود المستاءة من الولايات ، ولكى لا يضطر إلى الاستنجاد بالنمسة عند الحاجة فقد قرر تأليف قوة أهلية تستطيع قمع كل ثورة ، فزاد (برنتينى) عدد الجيش وشجع تأليف العصابات من المتطوعين غير النظاميين وأطلق عليهم إسم (سنتوريون) ، وفى مدة قصيرة زاد عدد هذه العصابات حتى بلغ الآلاف ، أضف إلى ذلك أنه كره أنصار البابا للاحرار قد جمع حولهم جماعات من المتشردين وكثيراً من الرجال ، فألفت قوة متحفزة للانتقام من خصوم الحكومة وللنهب ، وبانضمام اليسوعيين إلى هؤلاء اضطر الأحرار إلى السكوت ورأت البلاد أرهابا لا نظير له ولا سيما فى دولة الرومانى والمارك ، فامتنع القرويون السنتوريون من دفع ديونهم وهدد العمال السنتوريون رؤساءهم .

وكانت جمعية السانفيد يست تبيع مساعداتها لهذا وذاك ، فتزيد فى الطين بلة ، أما سلطان اليسوعيين القاهر فأدى إلى غاية الاضطراب والفوضى ، وقد انسحبت سنة ١٨٣٨ القوات النمسوية والأفرنسية من أرض الكنيسة وتركت رعية البابا تحت رحمة هذه الجماعات المستعصبة الظالمة ، وتجاه هذا الضغط المتزايد قويت الجمعيات السرية وكتب (دازجيلو)[1] : « إذا سألتم فتى من أهل الرومانى فيما إذا كان قد سجن ، فيجيبكم فوراً أما الآن فإنى أصبحت رجلا

(١) سيمو دازجيلو أديب وسياسى إيطالى Massimo D'Azeglio

لأنى سجنت فلا يمكن ان أكون رجلا من دون أن أسجن » ، حتى أن المحافظين أنفسهم من أهل أوربة قد سئموا هذه الحركة وشاع فى المدينة المثل الآتى . — « لا يمكن التفاهم مع الرهبان » . ومع هذا فإن الأحوال لم تساعد حينئذ على الثـورة سواء أكان ذلك فى روما أم فى نابولى أم فى بيمونته ، فاضطر ما زينى إلى الالتجاء إلى سويسرة أولا ثم إلى انجلتره متمسكا بمثله الأعلى فى إخلاص لا يتزعزع ، وكان الأحرار « دراندو وجيالدينى ومديجى وفانتى » يحاربون فى صفوف الأحرار فى أسبانية والبورتغال ليصبحوا قادة الحروب فى المستقبل ، أما غريبا لدى فقد سافر إلى الممتلكات الإيطالية فى أمريكة الجنوبية عن طريق باريس وبروكسل ولندن باذلا جهده لزيادة الأنصار ، أما الكاربوناريون فلم يذكر إسمهم فيما بعد إذ انسحبوا من الميدان وتخلى ما زينى برهة عن قيادة ايطالية الفتاة فأوشكت تنظيماته أن تضمحل ، وأدى انتشار الهيضة من سنة ١٨٣٥ إلى سنة ١٨٣٧ إلى ترك الناس شؤون السياسة واهتمامهم بأنفسهم ، ولولا الحركة الأدبية لا نطفأت شعلة الحركة .

وقد أثار كتاب سلفيو بلميكو « سجونى » حماسة القارئين. أما شهيد سبيلبرج الشاعر الموسيقار بركيت فكتب نشيده الخالد

إلى السلاح يا ايطالية إلى السلاح فقد بزغ فجرك .

أما « جرازى »[1] فكان يبحث عن العظمة الإيطالية وبعثها

(١) فرانجسكو جيرازى أديب وسياسى إيطالى Francesco Guerazzi

وأما كتب دازجليو فكانت تحث الجيل الإيطالى الحديث على أن يتخلق بالرجولة وأن يترك مراقصة الغوانى وأن يتفرغ للأعمال الوطنية ، وكتب « كوليتا وبوتا » تاريخهما الباحث عن كفاح ايطالية الحديث ، أما الروايات الهزلية التى ألفها (جستاف مودينا) فكانت تبث الأفكار الوطنية والآراء المعاكسة للبابوية على قدر ما كانت تسمح به الرقابة ، وأيقظت مآسى (نيكولينى) ذكريات القرون المتوسطة وذكرت الشعب بدموقراطيته القديمة ، وكانت تترنم بالحرية وتهزأ بالألمان وأنصار البابا ، أما أهاجى (جيستى) التى كانت تكتب نسخها باليد ويتداولها المئات فكانت تحمل على الأمراء والشرطة والمحظيات وتنفذ إلى عقول الشعب ، وكان جيستى هذا يمتاز بوطنية عميقة ويستهزىء بالذين يزعمون : « أن الفكرة التى تنبعث من قوميات مختلفة توسع الأذهان » : ويجيب بكبرياء على الأجانب الذين يذكرون إيطالية كأنها بلد ميت ويقول :

« يا حبذا مقبرة كريمة تجعل الأحياء يغتبطون بها » .

فضلا عن أن نشرات ما زينى الحماسية كانت تنتقل من يد إلى يد فتنفخ عزماً جديداً فى الطبقات المثقفة بينما روايات مودينا الشعبية كانت تضرب على وتر شعبى حساس .

وقد بدأت فروع جمعية إيطالية الفتاة تتأسس تدريجياً رغم خمود الهمة ، وامتدت حلقات المؤامرات إلى بالرمو ونابولى وفلورنسة وميلانو وأخذ المنفيون فى إنجلترة وفرنسة وأسبانية وكورسيكة

ومالطة والجزائر اليونانية يكاتبون أصدقاءهم الذين ظلوا فى إيطالية وأمست صقلية مركزاً للعصيان ، أما النزاع المديد بين أنصار اللامركزية وأنصار الحكم الذاتى فقد انتهى بانتصار الآخرين ، ولما عزل الملك نائبه المحبوب من الأهالى حسداً زالت الأحقاد بين أحرار الجزيرة واتحد الجميع لمقاومة المستبد ، وانضم حزب — الانفصال القديم إلى الحزب الجديد الذى يقول بادماج الجزيرة بالجمهورية الإيطالية ، واجتمع فى سنة ١٨٣٧ مندوبو الجمعيات السرية فى باليرمو للمذاكرة فى شؤون الثورة ، وحين تفشى مرض الهيضة «الكوليرا» فى إيطالية وامتد إلى الجزيرة وقضى على أربعين ألفاً من النفوس فى باليرمو ، فقد استغل الاحرار عقلية الشعب وقووا الاعتقاد بأن الحكومة هى التى سممت المياه وبشروا بالثورة عليها فهبت (مسينة — وكتانية وسيراكوزه) ورفعت العلم الأصفر شارة الاستقلال ، وفى سيراكوزه فتك الشعب بالشرطة وبجميع الأشخاص المشبوهين فأرسلت الحكومة على أثر ذلك القائد (لكاروتو) لإخماد الثورة فسلك سبيل الارهاب وحكم على مائة منهم بالموت ومع أن ثورة صقلية حركة انفرادية فقد أظهرت كيف يتطور الاستياء إلى انفجار واستفاد حزب إيطالية الفتاة من ذلك حين نهض ثانية وأخذ يرسم خطط العصيان بإحكام وتنظيم ، واعتزمت لجان الثورة فى صيف سنة ١٨٤٣ عصيانا عاماً

فى كل من بلاد نابولى والرومانى وطوسكانة إلا أنه كان كل قطر من هذه الأقطار ينتظر أن يبدأ الآخر بالقيام ففشلت الثورة .

ولما كشفت المؤامرة فى بولونية ورافيته وخشى المتآمرون انتقام الحكومة اعتصموا بجبال الابنين ونظموا فيها حرب العصابات ولما لم يلقوا عوناً من أهل الجبال تفرقوا شذر مذر . فمال مازينى إلى رأى أكثر المتآمرين بصيرة وأقتنع بتفاهة هذه الحركات . وبرز حينذاك الأخوان (أتليو وأميليو) الشابان الشريفان من فنيسيه وكانا من ضباط الأسطول النمسوى ، وقد اقتنعا بأن ما تحتاجه بلادهم هو أمثولة العمل الجرىء الحازم والفداء الصحيح ، وأرادا أن يجعلا نفسهما المثال الحى المنشود وذلك بتنظيم حرب عصابات فى القسم الجنوبى من جبال الابنين ، وقد بذل مازينى وآخرون جهدهم لحملهما على العدول عما اعتزما عليه إلا أنهما لم يأخذا بالنصيحة وصما أذانهما عن سماعها وعن سماع توسلات أبيهما وزوجة أولهما آتيلو الفتاة . ففرا من الأسطول والتجآ إلى كورفو ثم أبحرا وبعض الرجال إلى إيطالية وبعثا إلى مازينى بكتب بينا فيها خطتهما بالتفصيل ، وقد اعتمدا على الأمانة التى تمتاز بها دوائر البريد الإنجليزى إلا أن كتبهما فتحت فى دائرة البريد الانجليزية وأخبر اللورد ابردين الحكومة النابولية بأمر المؤامرة وتفاصيلها حتى إذا ما نزلت القوة الصغيرة إلى البر

قبضتهما فحكمت على الضابطين المذكورين بالموت **بالرصاص**، وقد هتفا حين نفذ فيهما حكم الموت **قائلين** « فلتحى إيطالية » . وكان لموتهما على هذه الصورة الشريفة تأثير عظيم فى البلاد إذ اهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها وعرف العالم كيف يموت الإيطاليون فى سبيل وطنهم .

الفصل التاسع

المعتدلون

١٨٤٣ — ١٨٤٦

منذ أن أفل نجم الكاربوناريين كانت الحركة الدموقراطية والجمهورية التى تولى زمامها حزب إيطالية الفتاة قد بثت روح الوطنية الفعالة فى البلاد إلى حد ما : وكان سبيلها إلى الوصول إلى أهدافها الدعاية بالكتب والنشرات والمجلات والحث على الثورة مهما كانت الظروف . ثم اقتنع رجالها بعد التجارب القاسية بلزوم التأنى فى إشعال نار الثورة إذا كانت الظروف لا تساعد على ذلك ، فكان الحزب حامل راية الاستقلال فى الإثنى عشرة سنة الأخيرة .

وكانت فكرة الاستقلال والوحدة قد انبثت فى نفوس كثير من المثقفين الذين لم يكونوا من حزب إيطالية الفتاة . فكان للبعض منهم أيضاً تأثير محسوس فى بعث الفكرة القومية ، فرأى حزب إيطالية الفتاة نفسه أمام حركة قومية يقودها مثقفون تختلف طريقتهم فى الحصول على الاستقلال عن طريقة حزب إيطالية الفتاة لأنهم كانوا ملكيين ينفرون من المؤامرات والوثبات الفردية ، ويرون فيها إسرافاً فى حياة المتهوسين وحجة

بيد الحكومات لاستعمال أقصى الشدة والمضى فى التدابير الاستبدادية الغاشمة . من أجل ذلك فإنهم كانوا يرون أن يترأس الحركة ملك بيمونته أو البابا ، وكانوا يطالبون الملوك بالإصلاحات لأنها هى فى حد ذاتها توصل إلى الهدف وإذا اعتبرنا رجال حزب إيطالية الفتاة أحراراً متطرفين فيكون هؤلاء أحراراً معتدلين . وكان المعتدلون يحملون طابع الآراء التى كانت تبثها فيما مضى الكنجلياتورة ومجلة أنتولوجيا وكتابات منزونى ، وكانوا مقتنعين بأن الزمن لم يحن للقيام بالحركات السياسية العنيفة ، وأن الأجدى فى هذه الآونة توجيه همة الأمة نحو التعليم والاصلاحات الاجتماعية ، وكانوا يدعون إلى الإكثار من المدارس وتحسين الزراعة ومد السكك الحديدية وإنشاء الصحف الأدبية وتأسيس الجمعيات العلمية ؛ وكان أول عمل قاموا به توجيه حملة شديدة على اللهجات المحلية فتوفقوا فى جعل اللغة الإيطالية الكلاسيكية لغة العلم والأدب فى جميع أنحاء إيطالية ، ثم عقدوا المؤتمرات العلمية ، ومع أن هدف هذه الاجتماعات كان علمياً بحتاً ولكنها اصطبغت بصبغة قومية ذلك لأن الاعضاء كانوا يمثلون دول ايطالية وحدها ، فالبحوث الاقتصادية مثلا ولدت فكرة الاتحاد الجمركى ، والمسائل الاقتصادية أدت إلى السياسة ، والتدقيقات الجغرافية إلى المناقشات الحرة عن موقف ايطالية وهكذا انضمت هذه المؤتمرات العلمية إلى العناصر التى خلقت الفكرة القومية الجديدة .

ولم يوافق البابا ودوق مودينة على اشتراك رعاياهما فى هذه المؤتمرات وكان من نتائج هـذه المؤتمرات أن أخذت السكك الحديدية تمتد فى البلاد فتربط المراكز المهمة بعضها بالبعض الآخر وتسهل الاتصال بين الطليان على اختلاف أقاليمهم وتنشط التجارة الإيطالية . وقد عبر « دازجليو » عن سياسية مد السكك الحديدية بأنها « تخييط الحذاء الطويل » إشارة إلى إيطالية التى تشبه الحذاء فى وضعها على الخريطة ؛ ومع ذلك فلم يتخلص أولئك المخلصون الاجتماعيون من تأثير السياسة فقد زجوا نفسهم فيها رغم أنفهم ذلك لأن مبادىء مازينى كانت قد اختمرت وأصبحت ذات تأثير عظيم فألهبت النفوس بحب الوطن وشبعتها بآمال النصر والاستقلال . فكان جيستى مثلا ينسف العروش بأهجياته أما جيرازىّ فكان يلهب بها القلوب ، وأخذت الأكثرية العظيمة من مثقفى الطليان الذين كانوا يكرهون الثورة ، ينضمون إلى المعتدلين .

وانقسم المعتدلون فى بادىء الأمر إلى زمرتين الأولى كانت كاثوليكية قبل كل شىء أطلق أعضاءها على أنفسهم اسم (الجلف الجديد ، وأصبحوا من أنصار مدرسة منزونى الرومانتيكية وكانوا كمازينى يبشرون بالواجب والثبات والدرس والأخلاق الفاضلة ، إنما كانوا يختلفون عنه بتبشيرهم الخمود والتوكل وبما أنهم كانوا فاقدى الشجاعة الأدبية ، وجلين يخشون طريق الرقى الوعر ،

ضعفاء أمام المعارضة فكانوا يحلمون بحياة مثالية تتصافى فيها جميع الطبقات حيث العدالة والرحمة تقنعان البابا والرهبان والأمراء معاً فتجعلاهم يشرفون على شعب سعيد ومعترف بالجميل . وكان من هؤلاء (جيوبرتى) ؛ كان جيوبرتى راهباً من أهل تورينو وقد نفى من بلده فى أوائل عهد الملك شارل البرت فأوضح آراءه فى كتابه « تفوق الطليان المعنوى والادبى » نشره سنة ١٨٤٣ ، وكان يدعى بأن إيطالية ، ذلك البلد الذى أنجب دانتى وفيكو ونابليون يجب أن يكون دائماً وأبداً بلد الرجال النشطين ومهد العباقرة المبدعين ؛ وكان يقول ما دامت روما المسيحية قد علمت العالم السلم والحب اللذين خلقا الحضارة الحديثة ، وما دام الرومان هم الشعب المختار الذى بث فكرة العدالة فيجب على ايطالية أن تظل الأمة المنقذة والاخت الكبيرة للأمم والمركز المعنوى والعقلى للعالم ، ولن تتبوأ إيطاليةهذه المكانة إلا بالاستقلال ، فالاستقلال وحده يستطيع أن يجعل البلاد فى الصف الأول بين الأمم ، وكان جيوبرتى لا يؤمن بالوحدة الإيطالية زاعماً أن التجزئة التى أصابت إيطالية منذ أمد بعيد قد فعلت فعلها بحيث يتعذر إيجاد الوحدة بصورة سليمة ، أما تأسيسها بالقوة فجريمة وكان يرتأى إقامة اتحاد لا وحدة بين الدول الإيطالية برئاسة البابا العليا — وكان يجزم بأن العبقرية الإيطالية من حيث أساسها ملكية ، إرستقراطية ، إقطاعية ، وعليه فيحق للبابا أن يحتفظ بالسلطة الزمنية ، وراح

يطلب إلى الملوك والأمراء أن يجمعوا المجالس الاستشارية وأن يمنحوا الصحافة حريتها ، أما الأشراف فينبغى أن يكونوا جديرين بألقابهم وذلك بتسليمهم زمام الأمور وبتركهم الامتيازات الاقطاعية وباحترامهم من دونهم ، وأما الرهبان فيجب أن يتعلموا وأن يتحرروا من الشبهات وأن يكونوا متسامحين نحو المذاهب الأخرى ومخلصين للملوك والأمراء والشعب فكان لكتاب جيوبرتى تأثير عظيم وفى رأيه أن البابا وملك بيمونته هما اللذان يمكن أن ينقذا الطليان ، وطبيعى أن ينتشر كتابه فى جميع الأوساط فيرحب به الإكليروس والقوميون من رجال السياسة ولا سيما الأمراء من آل صافويه .

ثم يليه (ممبانى) ، أوضح ممبانى ، وهو من زعماء ثورة ١٨٣١ أراءه فى رسالة نشرها فى باريس سنة ١٨٤١ ، ورأى فيها أن إيطالية عاجلا أو آجلا سوف تنال استقلالها من دون مساعدة أجنبية وبعد حروب حامية يشنها أحد الملوك الطليان وعليه يجب أن تترصد الفرصة سنوات حتى تنشب الفتن فى النمسة وفى الحين ذاته يجب علينا تربية الجماهير تربية وطنية تؤهلهم للمساهمة فى الحركة ، على أن هذه الرسالة لم يكن لها كبير تأثير .

وكان رجال السياسة الذين لا يرون فى البابا القدرة على إنالة إيطالية استقلالها يجدون ما ينشدونه فى ملوك بيمونته ، وكانت سياسة الحكومة البيمونتية تعتبر الكنيسة فرعاً من فروع الإدارة

وكان معظم الأشراف فى بيمونته يعتزون بماضى بلادهم ويؤمنون بقدرتها وكانوا يرثون الحقد التقليدى على النمسة .

وفى الوقت التى كانت فيه الزمرة الأولى من المعتدلين تتخذ كتاب جيوبرتى إنجيلا لها ظهرت أراء الزمرة الثانية التى تؤمن برسالة بيمونته القومية فى الكتاب الذى ألفه قيصر بالبو بعنوان « آمال إيطالية» والذى نشر فى باريس سنة ١٨٤٣ ، وكان بالبو هذا تلميذاً لجيوبرتى ومعجباً به ولكنه يختلف عن أستاذه بتعليق آماله على تورينو بدلا من روما ، وكان كتابه موجها ضمناً للملك شارل البرت يحرك به وطنيته ويعده بأكليل المجد ويمنيه بتوسيع البلاد بعد طرد النمسويين منها ، ومع ذلك فلم يوجه تلك الدعوة باسم الوحدة الإيطالية لأن بالبو يرى فى الوحدة الإيطالية حلماً خلاباً ويعتبر أن المستقبل السياسى يتوقف على الاتحاد لا الوحدة غير أن هذا الاتحاد لن يتم مادام النمسويون يحتلون البلاد ويقول : « إذا لم يكن هناك استقلال وطنى فكل ماننشده من أمور طيبة لا يساوى شيئاً ، وأن مجرد احتلال الأجنبى أيالة واحده فقط لمن شأنه أن يهين الكرامة الوطنية وأن يحول دون رفاه الولايات الأخرى ، ويؤذى الصناعة الإيطالية بل أنه من شأنه أن يذهب بمزايا الأمة كلها ، من أجل ذلك يجب المطالبة بالإستقلال قبل الوحدة وقبل الحرية الدستورية ، ومن غريب ماذكره فى كتابه أن إيطالية لا تحصل على استقلالها إلا على الاختلاف الذى يحدث بين الدولة العثمانية وبين النمسة فيؤدى إلى

الحرب التى تشغل النمسة بالشرق وبذا تسنح لإيطالية فرصة الحصول على استقلالها وتتجلى قوة أمله فى الجملة الآتية ، لا تقهر أمة تبلغ عشرين مليونا إذا اتحدت وكانت ذات خلق ، وينهى كتابه مثل جيوبرتى بالجملة الآتية : « فليقم كل شخص بواجبه حسب استطاعته والله كفيل بالإتمام ! ! » .

وقام (مسيمو دازجليو) صديق بالبو بنشر أرائه ، وكان هذا أيضاً من أشراف بيمونتة ، ترك مسلك الجندية واحترف الرسم وكان يقضى أوقاته بين روما وميلانو وفرنسة ، ولعله البيمونتى الأول الذى برهن على إيطاليته بالتجول فى مراكز ايطالية المهمة وأخذ يكتب الروايات ونال شهرة فى إيطالية كلها ومع أن بالبو كان يميل إلى أراء جيوبرتى من جهة اعتبار روما فإن داز جليو كان يكره روما ، وفى خريف سنة ١٨٤٥ دعاه أهل الرومانى ليبشر رسالة بيمونته فوصل إليها ، وأخذ يبشر بالثورة فى اليوم العظيم ويدعوا إلى الثقة بشارل البرت ، ورغم الذكريات المرة التى تحز فى نفوس الأحرار الفتيان من جراء موقف ملك بيمونته ورغم اقتناعهم بضرورة توجيه جهودهم نحو الجمهورية فقد استطاع داز جليو أن يجذب فئة كبيرة إلى أرائه ومع ذلك فإنه لم يوفق إلى القضاء على عادة العصيان المحلى .

فلم يكد يترك الرومانى حتى بدأ الارهاب فتلاه قيام فراتورى الذى دفع الأحرار إلى رفع السلاح فى رافينه وريمنى حيث نشرت

بيانات عامة إلى الملوك وشعوب أوربا ، وكانت الحركة فى حد ذاتها قليلة الأهمية وكانت الظاهرة الأولى للفكرة الجديدة التى برزت باشتراك رجال من شيع مختلفة من أجل غاية واحدة وقادها رجلان لا ينتميان لحزب الثورة وهما (ممبانى وفارينى) كتب البيان بقلم مازينى وكانت الحركة ترمى إلى إكراه البابوية على إنقاذ نفسها بالقيام بالإصلاحات ولم تتعد المطالب التى وردت فى البيان ما جاء فى المذكرة الدولية الموضوعة سنة ١٨٣١ ، وكان فى جواب البلاط البابوى عليه بعض اللباقة والحذق ، أما داز جليو فانتهز الفرصة وأذاع بياناً يؤيد فيه سياسة بيمونته التقدمية ، ثم طبع رسالة تبحث فى حوادث الرومانى الأخيرة ، ندد فيها بالثورات المحلية الصغيرة التى لا تؤدى إلى الاستقلال بل تمكن الحكومات من سحقها وتسوغ حجتها فى إنزال الاضطهاد بالأحرار ، مبيناً أنه ليس من حق أقلية أن تفرض مستقبل الشعب وأن تلقى البلاد فى كفاح واسع ، خطر ، فالمعركة يجب أن يشترك فيها الجميع ولكن الوقت لم يكن صالحاً للحرب ما دام النمسويون يستطيعون أن يقمعوا كل حركة بقوة السلاح ، ومع أن الصبر يشق على الرازحين تحت الاستبداد فإنه يجب ألا يغرب عن البال بأن الثورة تصطدم بسخط الرأى العام ومن مزايا داز جليو تقديره للرأى العام .

وكان لتلك الرسالة صدى عميق فى البلاد وأصبح داز جليو بفضلها زعيما لانصار البرت الذين يعلقون آمالهم على ملك بيمونته

أما الجمهوريون فاعترفوا بصعوبة السير ضد التيار وهكذا أخذ الشبان الجمهوريون يبدلون معسكرهم وينضمون إلى الحزب الجديد ، وقوى هذا التيار حتى صعب مماكسته ، فرأى مازيني رغم اقتناعه بالمذهب الجمهوري ضرورة التفاهم ورضى بأن يكف عن الدعاية الجمهورية ولو إلى حين على أن يرضى المعتدلون أيضاً بالكف عن فكرة الاتحاد وبالسعى للوحدة — وكان من نتيجة ذلك أن أخذ الذين يتلهفون من صميم قلوبهم إلى رؤية إيطالية حرة ينضمون إلى صفوف المعتدلين أو الالبرتيين — ويزيدون فى عددهم ومع ذلك فإنه لم يكن بينهم وقتئذ تماسك فى الرأى ، فمنهم من يريد أن يشترك البابا فى الحركة ، وآخرون أمثال ، « جيا كومو دوراندو ولويجى توربلى » ، يودون أن يتخلى البابا عن سلطته الزمنية ، ومنهم من ينشد الحرية الدستورية قبل الاستقلال ، ومنهم من كان يغار من التوسع البيمونتى ويعارض إلحاق أى جزء وراء وادى بو إلى بيمونته ونابولى وطوسكانه على أن يكون الملك شارل البرت الحاكم المعنوى لإيطالية .

ومع ذلك فإن شارل البرت لم يحقق آمال أنصاره إلا قليلا ، ففى السنوات الأولى من حكمه تبين أنه أضاع مثله الأول ، ذلك المثل النبيل وأصبح فى بعض الأحيان تحت نفوذ الحزب الاكليريكى وكانت الشدة التى استعملها ضد الأشخاص قد وسعت الهوة بينه وبين الأحرار وكان يرفض بأن يتساهل معهم أبداً ، حتى أن

حكومته ساعدت النمسة على إجبار سويسرة على طرد اللاجئين من بلادها ، وكان محتملا أن يكون شارل عند حسن الظن به لو لم يخش تقدم الجيش النمسوى نحو تورينو فكان مثله الأعلى فى الحكم المطلق المنور ، وكان يرى بأن حكومة شخصية قوية ضرورية للاحتفاظ على القومية البيمونتية فكان على حد تعبيره بين «مدية الكاربوناري وشكولاته اليشوعيين المسمومة » ، ويظهر أن الزمن والحوادث غيرت آراءه إذ رأينا فى المدة الأخيرة يضع ثقته فى الأحرار حينما رأى أن اليسوعيين يعارضون إصلاحاته ، ولى رئاسة الوزراء « فيلا مارينا » وأخرج من الوزراء بالتدريج جميع العناصر الرجعية وشرعت حكومته تقوم بالإصلاحات الإدارية ، وكان شارل البرت يقول : « على الحكومة أن تضع نفسها على رأس كل حركة تقدمية» ووضعت اللجنة الحقوقية القانون المدنى المسمى باسم البرت نفسه وأصبح هذا القانون أساساً للقانون المدنى الإيطالى ، وقد ألغى العرف الإقطاعى فى جزيرة ساردينه ، وكان مرعياً إلى ذلك الحين وله صفة اشتراعية ، وأعاد فيلا مارينا تنظيم الجيش وجعل الخدمة فيه قصيرة وخفف رسوم الحماية الجمركية وعاد الرخاء إلى مدينة جنوة حين أصبح بعضها ميناء حرا وعقدت مع الخارج عدة معاهدات تجارية ومنحت الحكومة إعانات لترقية صناعة الحرير وألغت النقابات وأصلحت دوائر البريد وأحدثت كراسى جديدة للتدريس فى جامعة تورينو واجتمع المؤتمر العلمى الثانى فى تورينو سنة ١٨٤٠ ورغم تدين

الملك فإنه أظهر حياده فى حماية المذاهب فدافع عن امتيازات جماعة الجاليكان ضد هجمات روما ، ولما قاوم الاكليروس ، فتح المدارس السلمانية وجمعيات الاسعاف وقف منهم الملك موقف المناوىء ، وقد استخدم فضلة الواردات التى تراكمت بفضل السياسة المالية الرشيدة فى مد السكك الحديدية فى مملكته ، وكان يكره مترنيخ كل الكره ولم يغفر له محاولاته لإبعاده عن العرش ، وكلما ساءت نياته نحو النمسة تحتم أن يتقرب من شعبه ، ولم يرتح أبداً إلى بقاء الأشراف طبقة منعزلة فسعى فى إزالة الحواجز بينهم وبين الطبقة المتوسطة ، ووافق سنة ١٨٤٢ على تأسيس جمعية زراعية قومية فكانت جلساتها فرصة لاشتراك البيمونتية مع اللمبارديين فى المذاكرات الأمر الذى جعلهم يشعرون بأن عليهم واجباً يتعدى حدود البحث فى الأمور الزراعية ، وسمح لكتاب جيوبرتى « بريمانو » بالتداول وكلف الشاعر « براتى » بكتابة نشيد للمسير يحتوى البيت الآتى : — كلنا جميعاً من بلاد واحدة — يجرى فى عروقنا دم واحد » .

وتوترت العلاقات بين النمسة وبيمونته فى مطلع سنة ١٨٤٣ بسبب النقاش حول تجارة الملح بموجب أحكام معاهدة قديمة وكان الملح المستورد من لمبارديه لا يكفى لحاجة منطقة تسينا فلذلك طلبت هذه المنطقة إلى بيمونته بأن تسد حاجتها الأمر الذى جعل النمسة تحتج على بيمونته ، فما كان من هذه الأخيرة إلا أن قابلت عمل

النمسة بالمثل وبذلك فشلت مساعى النمسة فى تقييد تجارة بيمونته ، وقد كان لفشل النمسة هذا استحسان عظيم لدى الرأى العام ، ولما اشتد التوتر ولاح شبح الحرب تراجع الملك وارتأى أحد الوزراء حل الخلاف بالطرق السلمية على أن يكون قيصر روسية الحكم فى حسم الخلاف ومما يجدر ذكره أن الملك أصلح التعليم الأولى وشجع وزير المعارف على القضاء على الثقافة الأكليريكية فى تورينو رويداً رويداً وكان يتصل بالأحرار المعتدلين الذين يرغبون فى الحرية الاجتماعية ويشاركونه فى مناوأة الحركة الدموقراطية ولا يهتمون إلا قليلا بالحقوق الدستورية .

الفصل العاشر

بيوس التاسع

أيار سنة ١٨٤٦ : كانون الأول سنة ١٨٤٧

مات البابا جرجوار فى صيف سنة ١٨٤٦ ، وانتخب محله بيوس التاسع ، الذى كان يظهر عطفه على الأحرار مع أنه كان حامياً لليسوعيين ، وكان مطلعاً على كتب المعتدلين ، مبدياً كرهه للاضطهاد السياسى ولعله كان يتوفق فى مهمته رئيساً للممتلكات الكنيسية لو أتى فى زمن أكثر هدوءاً من زمنه وكان مثقفاً ، حر الفكر ، متحلياً بعقل نافذ إلا أنه كان ضعيف الإرادة متردد الرأى يخشى المسئولية ، تلك كانت صفات الرجل الذى سوف يتوقف عليه مصير البابوية ، وكان قد ورث حقد روما التقليدى على النمسة ، فأول ما فكر فيه إزالة جميع مساوىء الحكم السابق ، فجعل التجارة حرة ، ووعد بمساعدته المؤتمرات العلمية وعين لجنة للسكك الحديدية ، وعفى عن جميع الموقوفين السياسيين فكان لكل ذلك وقع حسن فى انحاء إيطالية ، وأثار الحماسة فى نفوس الأحرار الذين تشبعوا بأحلام جيوبرتى واعتبروه المصلح المنتظر حتى أن الموسيقار روسينى وضع أغنية خاصة به ولما عاد

المنفيون جماعات وحضروا القداس اعتبر الناس هـذا رمزاً لعهد جديد تتصافح فيه أيدى الحرية والتجديد الاجتماعى وأيدى الدين والإصلاح .

سارعت مدينة بولونية إلى تقديم رمز مصالحتها مع روما ، وزالت الرقابة التجارية وتم الصلح بين الشعب والشرطة ، وانقلبت النقابات فى الرومانى إلى جمعيات وتبرعت بمبالغ كبيرة لتأسيس المدارس ، وقد رأى الملك شارل البرت فى شخص البابا الجديد الرجل المصلح الذى يشجع الآمال إلى أقصى حد ، فارتاح ضميره وهو الرجل المتدين لأنه سوف يسير فى الطريق الذى يسلكه رئيس الكنيسة ؛ ولما هددت النمسه باحتلال الرومانى رأى شارل البرت أن من واجبه الدينى والقومى أن ينتصر لبيوس التاسع ويحميه من عدوان النمسويين فصرح بما يلى « إذا حاولت النمسه أو مملكة نابولى التوغل فى دويلات الكنيسة فسأهتف بصرخة الاستقلال والدين » . وقد ألهب هـذا التصريح نفوس كثير من الأغنياء والطبقة المتوسطة فى بيمونته ووعدوه بالمساعدة .

ولما اجتمع المؤتمر العلمى فى جنوه بعد هذا التصريح ببضعة أيام أخذ الأعضاء يتذاكرون كأنهم فى قاعة البرلمان ، ويتداولون فى استقلال إيطالية وحريتها وبعثها حتى أنه سار شوطا بعيداً فى مذكراته ، وقرر أن يحتفل أهل جنوه بعيد رأس تحرير المدينة

من النمسويين فتوجهت الأنظار إلى المستقبل القريب الذى تطرد فيه ميلانو وفنيسيه الأجنبى منهما ، وكان من أمر ذلك أن امتدت شعلة الحماسة على طول جبال الأبنين فى طوسكانه والرومانى واشتد الكره ضد النمسه . وكان اليسوعيون الرجعيون واقفين لهذه التبدلات بالمرصاد ولم يكن اليسوعيون يؤلفون حزباً قوياً خطراً فى بيمونته وطوسكانه وروما وإنما كانوا يشغلون مناصب الإدارة ويقودون قسما كبير من الأشراف والاكليروس وهم أقوياء بتنظيمهم الدولى ولهم فى كل حكومة إيطالية نفوذ ظاهر أو خفى . أما فى نابولى وموديته فظلت فكرة الإصلاحات خامدة .

وبدهى أن يصطدم بيوس فى روما باليسوعيين والقسم الأعظم من الكرادلة وجماعة الاكليروس ، وبما أنه رغب فى ألا يتحرش بأى حزب فقد احترم جماعات سنتوريون الجياع ، واحتفظ بأكثر موظفى جراجوار الرجعيين ، وكان هذا خطأ فاحشا ، عبثا حاول وزير فرنسه المفوض أن يقنعه بأن تطهير الإدارة يجب أن يسبق كل إصلاح ، فلذلك أخذت بعض أوامر الكيرنيال تهمل ولا يعمل بها ، وبدأت أعضاء السانفيديست تتحدث عن احتمال نشوب الحرب الأهلية ، وأخذت صحافتهم تهاجم البابا . وفى شهر آب عين البابا الكردنيال (جيزى) مستشاراً للدولة ، وكان هذا يعد رئيسا لجماعة الاكليروس (الحرة والمرشح الشعبى للبابوية إلا أن كبر سنه وجهله للأمور وتردده جعله غير كفء للعمل الذى

أنيط به . وإدارة برأسها مستشار فى التسعين ، وبابا متردد لا تثمر غير الفوضى ، وظلت جماعة السنتوريون على دأبها تغتال الناس فى ظلمات الطرق مما جعل أحرار الرومانى يطالبون بتأليف حرس مدنى لحمايتهم ، وأخذت الدوريات تتجول فى طرقات بولونية وفراره قبل وصول جواب الحكومة ، ثم جاء جوابها وإذا به بالرفض البات وبذلك أضاعت الحكومة هيبتها . ولو أنها اتفقت مع الأحرار والمعتدلين لتغلبت على الصعوبات بيد أن مثل هذا الاتفاق كان يتطلب تطهير الإدارة والموافقة على تأليف الحرس المدنى ؛ وأخذ الرجعيون يدبرون الدسائس للوقوف دون الاصلاحات بينما بقى المعتدلون بلا حركة ، مكتفين بنجاح برنامجهم الظاهر ، ومعتمدين على البابا ، ووجلين أمام مطالبات الأحرار الراديكاليين ؛ وكان منهجهم لا يطمن الرغبات فهو يتلخص بإعادة تنظيم الشرطة وفتح مصرف فى بولونية وإصلاح الجامعات وتأسيس مجلس الدولة . ولما استرسلت الحكومة فى خمودها وظل المعتدلون يتلاعبون بكتابة البرامج فقد اشتد قلق أكثر الأحرار نشاطاً ولا سيما حين رأوا آمالهم تتحطم نهائياً وإلى الأبد .

وحينئذ برز مازينى للميدان إذ رأى أن أحسن سياسة يتخذها بانضمامه إلى الحركة الجديدة وسوقها نحو الهدف الذى ينشده ، وكان على استعداد لأن يضحى بميوله الجمهورية إذا

اقتضت الظروف ، وأن يرضى برئيس كالبابا أو ملك يعمل للوحدة ؛ ومع أن أنصاره كانوا قليلي العدد فقد التحق به كثير من الأحرار أنصار بيوس ، يعقدون أملا على البابا ، ويرون أنه والأمراء سيرضون طوعاً أو كرهاً بالاندماج فى الحركة الدموقراطية ويؤسسون حكومة دستورية ويعلنون الحرب على النمسه .

أصبحت طوسكانة موطن استياء عام فجعل «سمبنى» . رئيس وزرائها الشرطة فى حالة الاستعداد للطوارئ تجاه الأعمال التى قام به سلفه . ولما وافق مجلس الوزراء الرجعى على قبول اليسوعيين اضطرب الرأى العام لذلك أيما اضطراب ، لأن الناس كانوا يحملون فى قلوبهم حقداً دفيناً عليهم ، ولما فشل البلاط فى إدخالهم فى فلورنسه حاول إدخالهم فى بيزا إلا أن مونتا نيلى أحد أساتذة الجامعة حرض التلاميذ ضدهم ففشلت بذلك المحاولة الأخيرة أيضا ؛ واتخذ هذا الأستاذ الصحافة السرية أداة سياسية قوية وأصبح ذا نفوذ لدى الأحرار ، وفى مثل هذا الوقت وردت أخبار اعتلاء بيوس كرسى البابوية وعفوه عن المبعدين . وكانت طوسكانة داعماً فى ريبة من روما إلا أن الدعاية القوية فعلت فعلها وأمالتها إلى جانب البابا وقامت المظاهرات فى أنحاء طوسكانة ، يضرم نارها الاستياء من سوء الحالة الاقتصادية والسياسية المستحوذ على النفوس . وانتهز بعض الرجعيين الفرصة واتخذوا هذا الهياج ذريعة لتسويغ الاحتلال النمسوى إلا أن لئوبولد كان حريصا على استقلاله ، يقاوم

كل تدخل وأخذ الأشراف الأحرار فى فلورنسه والراديكاليون يلحون على الحكومة بأن تصلح جهازها الإدارى . فهناك حزب أولاد جورج المتيقظ بزعامة (كابونى) يقف بالمرصاد من جهة وجماعة أخرى صغيرة غير دمقراطية ولكنها تطالب بالحرية الاجتماعية التامة وبحكومة دستورية من جهة أخرى وكان يرأسها (ريكاسولى) ، فاتفق الحزبان على المطالبة بتخفيف وطأة مراقبة المطبوعات وكان الرئيسان يرغبان فى أن يقيما الصحافة العلنية مقام الصحافة السرية وأخذ كابونى يسوق الوزراء رويدا رويدا نحو سياسة أكثر حرية وتساهلا ثم أبطل الصحافة السرية ، ونشرت الحكومة أخيراً قانون المطبوعات الجديد وبعد صدروه ببضعة أسابيع وعدت بتأسيس مجلس الدولة .

أما فى مملتكات البابا فقد عيل صبر رعية البابا وخابت الآمال حين رفضت الحكومة إيجاد الحرس الأهلى وحين رأى الناس التلكؤ فى تنفيذ الإصلاحات وإنشاء السكك الحديدية ، فأخذ أهل الرومانى من جديد يسمعون النغمة القديمة وهى نغمة التهديد بالانفصال . أما أهل روما فكانوا يلقون تبعة هذا البطء على عاتق الكرادلة واليسوعيين حتى أنهم أخذوا يهتفون « ليعش بيوس وحده » ولما زار البابا كلية اليسوعيين راح الأهالى يصيحون « أيها الأب المقدس لا تذق شكولاتهم » يرمزون بذلك إلى أن اليسوعيين

يتآمرون على حياة البابا . وقد اتفق زعماء روما على شل أعمال الحكومة واعتمدوا على برونيتى) الملقب (شيشراكيو) لقيادة العامة ، وكان هذا الرجل قوى العزيمة ، خالص النية وضع نفسه موضع الصديق الخاص للبابا .

وكان البابا قد ضاق ذرعا بمعارضة البلاط له ولكنه لا يتحلى بالجرأة الكافية لسحق هذه المعارضة ، ولكن حركة شيشراكيو بث فيه بعض الشجاعة فأصدر أمره بعد التى واللتيا وبعد وعود ومماطلات قانون المطبوعات وفيه يلغى الرقابة وذلك فى شهر آذار سنة ١٨٣٧ ؛ وفى شهر نيسان وعد البابا بتأسيس مجلس الدولة ، يعين من قبل مجالس الولايات ، ويأخذ على عاتقه كثيراً من شؤون التشريع والمالية . وفى حزيران عين وزارة جديدة ومع أن أعضائها كانوا من رجال الدين فقد اعتبرها الناس خطوة للأمام . غير أن الوزارة أضاعت الفرصة وقضت على كل أمل بامكان استعادة الثقة . ذلك لأنها خلطت الإصلاحات بأعمال الاضطهاد ، وقد احتج (جيزى) رئيس الوزراء رسميا على الشعور العدائى الذى بدأ نحو النمسويين إذ أن ذلك ما ينافى كون البابا أبا لجميع المسيحيين فى أى بقعة من بقاع العالم . وقد هوجم (فنتورا) لأنه فى تأبينه للزعيم الإيرلندى (أوكونل) — وقد مات فى جنوه فى طريقه إلى روما — ندد بسياسة الخضوع التام وطلب إلى

الناس أن يجعلوا من كفاح هذا الزعيم قدوة لهم ، وأمر الراهب (جافيزى) رسميا بأن لا يذكر اسم إيطالية فى مواعظه الحماسية .

وحين تحرك المعتدلون بزعامة دآزجليو وبذلو قليلا من الجهد صدر القرار بتأليف الحرس المدنى ، ولعل الوزارة بموافقتها هذه كانت تتوقع أن الطبقة المتوسطة إذا تسلحت تكون درعاً يقيها حملة الأهلين من جهة والدسائس النمسوية أو السانفديستية من جهة أخرى . ولما أخذ رجال السانفديسيت يهاجمون الأحرار فى بعض المناطق ويدبرون الدسائس نشط البابا فى تأليف الحرس المدنى ، وأصدر أمراً بتسريح السنتوريون ، وأوقف رجال السانفديست المشبوهين فاضطر الكرادلة والرهبان إلى قبول الأمر الواقع وأخذ الأهلون يهرعون إلى التطوع فى صفوف الحرس المدنى . وحينما استقال (جيزى) عين البابا ابن عمه (فترينى) بدله وكان فترينى هذا جاسوساً للنمسه يعمل لحسابها ، وأصبح مترنيخ ينظر إلى هذه الأمور بعين القلق واعتبر وجود بابا يميل إلى الأحرار من أعظم مصائب ذلك الدور ، ولكن نفوذ النمسه عجز عن الوقوف فى وجه الحركة الايطالية . وقد حاول مترنيخ عبثاً أن يثير فى البابا وفى دوق طوسكانه الكبير المخاوف من الحركة القومية ومن أنها تنتهى بالجمهورية ، وقد سعى كثيراً لاستجلاب شارل البرت إلى جانبه بتحريك أطماعه ، إلا أنه لم يوفق إلى ذلك فكلف حينئذ عملاءه بمهاجمة الملك وحينما اطلع على الحماسة التى أثارتها فى طوسكانه

موافقة البابا على تأليف الحرس المدنى أرسل مذكرة إلى فلورنسه مهدداً الحكومة فيها بالاحتلال فيما إذا هى قررت بدورها تأليف الحرس فيها وأرسل صورة من هذه المذكرة إلى بلاط تورينو .

ولولا تهديد فرنسه إياه لكان قد احتل الرومانى وقد اضطره إلى التريث تهديد انكلترا بإرسال أسطولها إلى تريسته وتهديد (جيزو) رئيس وزراء فرنسه بانزاله القوات الافرنسيه فى دويلات الكنيسة ، ولكنه عاد فترك جانب الاحتياط وأراد القيام بحركة عسكرية نحو نهر بو تكون بمثابة تهديد لروما ، إلا أن زملاءه فى الوزارة لم يوافقوه على هذا الرأى فاكتفى بمظاهرة أخرى أقل أهمية من هذه ؛ ففى اليوم الذى قامت فيه جماعة السانفديست بإيعاز النمسه بمظاهرة ، قوى النمسويون حاميتهم فى قلعة (فراره) بقوة عظيمة ، ولما رفضت روما دخولهم أرض الرومانى رفضاً باتاً أخذت دورياتهم تتجول فى طرقات المدينة ، الأمر الذى اعتبره الإيطاليون إهانة من قبل النمسه للبابا ودليلا على عزم النمسه على مناوأة الآمال القومية ؛ فالمعتدلون أمثال دازجيلو وبالبو طالبوا باتخاذ تدابير حازمة ، وأسرع الوطنيون أمثال (دى مونتفيدئو) وغاريبالدى الذى شاعت بطولته فى العالم الجديد إلى تقديم خدماتهم للدفاع عن البابا وأدى السخط العام والخوف من الاحتلال إلى انجراف الأمراء أيضاً إلى التيار .

أما فى بيمونته فقد حام الملك حول حزب الأحرار وأخذ ينشط السياسة الاقتصادية ، ولما اطلع على دسائس النمسه اغتاظ منها وغضب على مذكرتها بشأن الحرس المدنى ، وأخذ يتقرب من الوطنيين فوافق على دخول كتبهم وجرائدهم إلى مملكته ، وساعد أهل تورينو على الاكتتاب فى سيف الشرف الذى أريد تقديمه إلى غاريبالدى أثناء عودته واجتمع هو بالمتآمرين الميلانيين . ولما ورد خبر احتلال فراره اضطر الوزير (ديلا مارجريتا) نفسه إلى أن ينحنى أمام العاصفة وأصبح فى غير مقدور الملك أن يصم أذنيه عن سماع نداء الأمة « التى رأت فيه سيفها المسلول » . ولما ورد كتاب البابا أجابه بأنه فى جميع الأمور لا يفرق بين قضيته وقضية بيوس. ولما اجتمعت الجمعية الزراعية فى (كساله) فى رأس سنة العفو الذى كان أصدره البابا عن المبعدين أرسل الملك إليها كتاباً مفتوحاً قال فيه : « إذا شاء البارى تعالى أن تنشب الحرب فى سبيل حرية إيطالية فسأضع نفسى على رأس جيشى لتحريرها » فأجابه الأعضاء من أهل بيمونته وجنوه ولمبارديه وبارمه بولاء وحماسة واعدين إياه بالمعونة وطالبين منه تأليف حرس مدنى ؛ وبلغت الحماسة فى بيمونته أشدها فاشتركت جميع الطبقات بالتبرعات للقضية القومية .

وفى طوسكانه ولوكا تطور الهياج إلى مطالبة مسلحة بتأليف الحرس المدنى ، فالثورات التى حدثت بعد ثورة الإيرلنديين

سنة ١٧٧٩ أيدت بأن الثورة التى توفق إلى وضع السلاح بيد الشعب تضمن الظفر بغاياتها بالحصول على المؤسسات التمثيلية . وقد علم الطليان وحقاً ما علموا بأن تسليح الحرس المدنى يجعل الاستبداد عاجزاً لا حول له ، على أن مطالبة الشعب بالحرس الأهلى لم يرد بها الدفاع ضد الاستبداد أو ضد الاشتراكية ، بل الدفاع عن الوطن . فإن فكرة وجود شعب مسلح يطرد النمسويين أمامه قد تأصل فى النفوس، وبينما طالبت فلورنسه بالحرس المدنى بمظاهرة صغيرة ولكنها عنيفة تلقت لوكا الأمور بجد أكثر من ذلك ، وكانت تتعقب حوادث طوسكانه بانتباه عظيم وبينما كان أميرها منغمساً فى لذاته وشهواته وحين اعتقال بعض الأحرار المحبوبين اشتد سخط الشعب اشتداداً خشى الأمير عاقبة الأمر فوافق على تأليف حرس مدنى فى شهر ايلول ، وفى أوائل تشرين الأول رفض نصيحة دوق مودينه باستدعاء النمسويين وباع حقوقه إلى أمير طوسكانه وخلع نفسه فاضطر أمير طوسكانه الدوق الكبير أيضاً إلى الموافقة على تأليف الحرس فى دولته . واشتدت حماسة الشعب ولا سيما بين الشباب والشيوخ والرهبان والجنود والأشراف ورجال الدين ، ونشرت فى لوكا الرايات المثلثة الألوان وأخذت كل مدينة تحتفل بعيد الاتحاد ، وسارت القرى فى الاحتفال على غرار المدن ، فأوفدت وفودها من الرجال والنساء والأولاد إلى المدن حاملين أعلامهم وعلى رأسهم راهب القرية يجولون الطرقات صائحين

اللعنات على المستولى على فرارة ، وزحفت الجماهير فى حشد عظيم إلى قصر الأمير صارخة : « فليسقط النمسويون » طالبين الاتفاق وروما فاقتنع الأمير حينئذ بلزوم استمالة الأحرار المعتدلين إلى جانبه فأقصى الوزراء غير المرغوب فيهم من الوزارة وعين بدلهم (ريد ولفى وسربستورى) . وهكذا ساعد احتلال فراره كثيراً على إشعال نار الحماسة فى الدول الثلاث المتريّثة . وبينما كان أنصار الحكم القديم لا يزالون يشغلون المناصب ويقيمون العقبات بوجه القوانين الجديدة كانت طلبات الشعب تشتد شيئاً فشيئاً ، وأخذت الصحافة تلعب دوراً عظيما بحيوية ونشاط أكثر من قبل ، وكانت الثورة فى ليفورنة ومظاهرات شيشر وكيو قد لفتت الأنظار حتى خشى العقلاء أن تنقلب الحركة الإصلاحية إلى ثورة دامية ولا سيما بعد أن اندلعت نيران الحرب الأهلية فى كابريه .

وكانت الظواهر تدل على أن إيطالية قد اتحدت ضد النمسة وكل شىء يدل على أن الحرب لا مناص منها ، فبدأ الهياج فى ميلانو وفى فنيسيه ، وكان من نتيجة هذا الكفاح العظيم أن اندفع الأحرار فى السعى إلى جمع الدول الثلاث فى شبه اتحاد ، وتطور الاهتمام بالتجارة الحرة الى التفكير فى الاتحاد التجارى أسوة بالاتحاد الجمركى الألمانى ، وكان هذا الرأى بمثابة تنبيه إلى مترنيخ بأن مثل هذا الاتحاد سيحمل الحكومات الثلاث إلى انتهاج

سياسة قومية موحدة . وحيث إن البابابيوس كان لا يزال يتألم من الاحتلال (فراره) ، فإنه رسم خطة لضمان مساعدة الجيش البيمونتى فيما إذا هدد النمسويون باحتلال الرومانى فأوفد (كربولى بوس) إلى تورينو ، فاستقبل فيها بحفاوة وصرح الدوق الكبير بأنه لن يبقى مدة طويلة من دون أن يتفق مع روما وبيمونته للدفاع عن القومية الإيطالية ، ولقى مندوب البابا معونة من اللورد منتو الذى أوفده بالمرستون ، وكان هذا يتحمس للحركة الحرة ، لمراقبة الأمور عن كثب ، ومع أن منتو جهر بأن انجلترا لا توافق على أية تعديلات أرضية إلا أنه شجع الحكومات على السير فى سياسة الإصلاحات والاستقلال . وقد رأى أن الملك شارل البرت قد انتابه التردد مرة أخرى وأن حكومته غير متأهبة للحرب وهو لا يزال فى قبضة اليسوعيين الذين أدخلوا فى روعه بأن الهياج والشغب السائدين فى طوسكانة لا بد من سريانهما إلى مملكته فساعد الملك الشرطة على مهاجمة الذين اجتمعوا لإنشاد نشيد روسينى الذى وضعه من أجل البابابيوس فكان لهذا العمل وقع سيء فى نفوس الناس ، فقدم فيلامارينا استقالته واضطرد بلامارجريتا إلى تقديم استقالته بعده . وأظهر الملك التردد نفسه فى موضوع الاتحاد التجارى وكان يرغب فى أن يكون الاتحاد مطمئناً لرغبات بيمونته السياسى ، فلذلك اشترط بعض الشروط التى جعلت طوسكانة وروما

ترفضان الاشتراك فى الاتحاد ، وسمى اللورد منتو عبثاً لإقناع الملك بعقد معاهدة دفاعية بين الحكومات الثلاث ، وبينما كانت المساعى تدعو إلى التفاؤل اذا بالملك يغير رأيه بعد أن عثر على أغنية شعبية بعنوان الملك الثرثار فغضب وعاد إلى موقفه السابق .

وأراد أخيراً أن يهدىء شعبه ببعض الإصلاحات فقام بالإصلاحات التى تتناول الحكومة المحلية والشرطة والصحة ومراقبة المطبوعات وإحداث دائرة للمعارف ومنح الحرية المدنية للبروتستان وفى زيارته السنوية إلى جنوه طلب أهلها منه العفو عن أنصار مازينى وطرد اليسوعيين وساروا فى مظاهرة يهتفون فيها « اجتازوا نهر تسينا فستكون معكم » ، وبينما كانوا يهتفون له توهم بأنه سمع بعض الهتافات لمازينى فما كان منه إلا أن أمر منع الاجتماعات فى المدينة . الأمر الذى ألقى الماء البارد على حماسة الأهلين . ولما عاد إلى تورينو لم يرق له الظهور أمام شعبه بل ذهب الى قصره خلسة . ومع ذلك كله فقد ظل على عزمه بمقاتلة النمسة اذا أرادت أن تتقدم وزاد فى الطين بله أن ماتت حينذاك أرملة نابليون دوقة بارمه ، وبموجب معاهدة فلورنسه يجب أن تنظم الدوقة إلى دوقية لوكا مع أن هذه الدوقية كانت قد التحقت قبل هذا بطوسكانة وكان أهل الدوقية يرغبون فى الانضمام إلى طوسكانة ولوكا بدلا من أن تقسم ويعطى قسم منها إلى مودينه والآخر إلى طوسكانه لأنهم كانوا ينفرون من حكومة مودينة المستبدة ، وكانت حكومة

طوسكانة قد تريثت وتربصت حتى احتلت قوات الدوق فرنسوا أمير مودينه فيفزانو فى أوائل تشرين الثانى ، فشبت معركة عنيفة فى طرقاتها وكادت تؤدى إلى دخول طوسكانة الحرب إلا أن الحكمة تغلبت وعلى الرغم من تهديد دوق مودينة بالانضمام إلى الاتفاق التجارى وبعد مؤتمرات طويلة عريضه وتضايق بالمرستون الشديد أذعن مترنيخ وأمر بسحب قواته من فراره .

الفصل الحادى عشر

القوانين الأساسية

١٨٤٧ — ١٨٤٨

كانت أوائل سنة ١٩٤٨ تتمخض عن تغيرات فى جميع أوروبا فالاضطرابات التى وقعت فى هنغارية وبوهيمية فى سبيل الحصول على الحكم الذاتى ، والنزاع بين الهنغاريين والكرواتيين كان ينذر بانحلال الأمبراطورية النمسوية . أما انعقاد الديت البروسى ونقاشه الحكومة نقاشا عنيفا ثم حله أمور ساقت جميع ألمانية إلى حركة دستورية عظيمة الشأن . وأضعفت الحوادث فى فرنسه شأن لويس فيليب ورئيس حكومته (جيزو) وشجعت الأحرار الاشتراكيين على العمل والاندفاع . وظاهرت انجلترة نجاح الاتحاد التجارى ضد تشريع الحبوب الذى عده الأحرار فى أنحاء أوربا مثالا حسنا . وفى إيطاليا عقدت النمسة معاهدات مع دوقيات وادى بو من شأنه أن يجعلها دولة تابعة لها بكل معنى الكلمة ، وكانت بيمونته وطوسكانة وروما من ناحية أخرى قد سلكت سياسة حذر تجاه النمسة . وساد الاعتقاد بألا فائدة من الإصلاحات ما لم يخرج النمسويون من لمبارديه وفنيسية ، وكان فى نابولى نفسها

قد انضم أحرارها إلى صفوف أحرار إيطالية ، وكونت الحوادث اعتقاداً فى البلاد بأن النمسة سوف تقهر وأن النمسويين سوف تقهر يطردون إما بمساعدة دولة أجنبية وإما بانتصار جيوش الأحرار فى إيطالية أو بثورة عامة .

ولم تعتمد إيطالية على المساعدة الأجنبية فى ذلك الوقت إلا قليلا ، وقد أخبر لويس فيليب شارل البرت بإشارة مترنيخ بأنه يجب ألا يعتمد على مساعدة فرنسة ، وكانت انجلترة تعطف كثيراً على إيطالية إلا أن رئيس حكومتها بالمرستون كان يلوح لها بوعود غامضة يبغى من ورائها أن تمتنع بيمونتيه عن الحرب . وقد اتفق حزب إيطالية الفتاة مع رجال الحكومة فى بيمونتيه على أمر واحد وهو الكف عن طلب المعونة من الخارج ، وعبر شارل البرت عن شعور الأمة بقوله : « إيطالية تكوّن نفسها » . وظن الطليان أن الأمراء والملوك فى إيطالية ما عدا أمير مودينه وبارمه سيضمون جيوشهم إلى جيش بيمونتيه فى الحرب ولكن هذا الظن تفاؤل لا يسوغة الواقع .

وصرح البابا فى الوقت نفسه بأنه لا يرغب فى الحرب مهما كانت الظروف ؛ أما فرديناند ملك نابولى فكان كثير الحسد لبيمونته ومحبذا للاستبداد النمسوى مما يحمل على القول بأنه لن يشترك بالحرب برضائه ، وكان أمير طوسكانة وحده مستعدا للوقوف بجانب ملك بيمونته .

واتجهت الأنظار فى لمبارديه لأنها ستصبح ميدانا للقتال ، وكان اللمبارديون أنفسهم فى حالة شبه ثورة يترقبون نشوب المعركة بفارغ الصبر . فالطبقة المثقفة تخلصت منذ مدة شيئا فشيئا من العوامل التى كانت تبعدها عن السياسة ، فأسس بعض الأشراف الأحداث مجلة اسمها (مجلة أوروبا) اجترأت أن تبحث عن أخوة الطليان وتفاهة الاضطهاد للقضاء على فكرة الحرية . وهناك زمرة أخرى أكثر شعبية وأقوى عزيمة التفت حول (كريبنى ودى كتانيو) محرر بوليتيكو : وكان كريبنى قد انتقد معاملة الحكومة للايالات الإيطالية وأثبت فداحة الحصة التى يشترك بها مواطنوه فى ضرائب الدولة . وهناك جماعة من الحقوقيين والدكاترة الشبان قبلت برنامج مازينى القومى ، وهكذا وجد أناس يحملون المشاعل فى الدجى الحالك ينيرون أذهان مواطنيهم بنشراتهم وبمؤلفاتهم الحرة وبكتاباتهم على الجدران وبدعايتهم الصامتة فى صفوف العمال والقرويين .

وكان لبيمونته تأثير عظيم فى تدعيم الوطنية اللمباردية ، وكان القسم الأعظم من إشراف ميلانو يملكون أملاكا فى بيمونتيه فكانوا يقضون أوقاتهم بين ميلانو وتورينو ، ولما نشبت معركة التعريفة الجمركية سنة ١٨٤٦ فاتح الأشراف ملك بيمونته بأمور استرعت اهتمامه . وكان توريلى قد بحث عن مملكة إيطالية الشمالية وحاول جذب الملك إلى هذه الغنيمة الشهية . وفى صيف سنة ١٨٤٧

هزت الحوادث التى وقعت فى دويلات البابا لمباردیه وفنیسیه هزاً عنیفاً . وكان لموقف البابا بيوس فى حادثة احتلال فرارة والهتاف بالاستقلال صدى فى الإيالات النمسوية المضطهدة . وأخيراً بدأ القرويون يتململون فى الأرياف ، واتفق الأشراف الراديكاليون فى المدن ، وجهر الرهبان بخلافهم لوجهات نظر الحكومة ، وقامت المجالس البلدية تحاسب الموظفين ، وازدرى القرويون فى الجبال بقانون الغابات ، واضطربت الأسرات الشريفة والغنية ضد النمسويين ، حتى أن أحد الأمراء النمسويين لم يستطع أن يراقص سيدة طليانية فى حفلة الرقص ، ولما مات رئيس أساقفة ميلانو اضطرت الحكومة إلى انتخاب إيطالى خلفاً له علّها تجلب رضاء الشعب ، وقد أدى هذا الانتخاب إلى مظاهرات صاخبة . أظهر الشعب تعلقه بالمطران الإيطالى فقاومت الشرطة بسلاحها الجمهور المسالم الجذل . وأخذت الدوريات تتجول فى الطرقات ، تعتدى على الأهلين وتزيد من سخطهم ؛ فألهب هذا الحادث قلوب العامة فى المدينة وأدى إلى انضمامها إلى الجماعات الصاخبة حتى أن القضاة أنفسهم لم يروا بدّاً من إخلاء سبيل الموقوفين فى هذا الحادث .

ولما تأكدت الحكومة النمسوية من أنها أمام حركة خطيرة أراد مترنيخ أن يلهى أفكار أهل ميلانو بالسماح لهم ببيان ما يريدونه وكان (المجمع — Cougragtion) هو المؤسسة الوحيدة فى لمباردیه التى تمثل الإيالات ، وهو بمثابة مجلس استشارى . فقدم

(نزارى) مندوب برعامة استدعاء إلى المجمع يطلب فيه تعيين لجنة تحقيق لمعرفة أسباب الاستياء وتقديم مذكرة إلى الإمبراطور . أما (توماسيو) مندوب فنيسيه فطالب بحرية الصحافة ، أما (مانين) فسبق اللمبارديين وطالب بالحكم الذاتى وذلك بالتمثيل القوى الحق وهكذا لم تتعد الحركة حدود القانون . وبقيت الحكومة مترددة بينما كانت الشرطة والجيش يغليان غضباً ويستعدان لصب الزيت فى النار . وكان قائد الجيش الجنرال (راديتسكى) نموذجا للظالم المستبد فى الجيش النمسوى ، وكان يجهر بأن « سفك دماء ثلاثة أيام يوصلنا إلى سلم يمتد ثلاثين سنة » ؛ ولكن نائب الملك وحاكم ميلانو كانا يميلان إلى تدابير أكثر هوادة من تدابيره ، وكان راديستكى يدعو الله أن يهيأ له الميلانيون الفرصة بتصرفهم ليطلب المدد من المركز ويحكم بالقوة الساحقة . وأخيراً هيأ له الميلانيون تلك الفرصة ، ذلك أنهم فكروا فى الإضراب عن استعمال التبغ إضراراً بالخزينة النمسوية ، ولا سيما لأن التضحية به من جانب الطليان ممكنة . وأصبحت الشوارع فى ميلانو فى أوائل شباط خالية من المدخنين ، وعرف الجيش كيف يستغل هذا الإضراب فوزع مقادير كبيرة من السجاير على الحامية ، وأخذ الضباط والجنود ينفخون الدخان فى وجوه المارة ، وحين غضب الأهلون من هذا التحدى أمر راديتسكى خيالته بمهاجمتهم وهم عزل ، وأعمل الجنود حرابهم فى العمال الراجعين إلى بيوتهم فقتل عدة أشخاص

وجرح أكثر من خمسين شخصاً . ولم تقف ميلانو ساكتة إزاء هذه الإهانة ، فاحتج الأشراف والموظفون على هذا العمل الشائن ، ودعا المطران من الكتدرائية البارى تعالى أن يلهم الحكومة الرأفة بالبشر فأصدر الامبراطور بلاغا يتهدد فيه الناس بالعقوبة الصارمة ، وقضى بهذا على كل أمل فى إزالة الاختلاف بين الحكومة والأهلين وأصبح الشعب والجيش على طرفى نقيض .

وقد ولدت فتنة التبغ حقداً عاماً فى كل أنحاء إيطالية ، وكانت الحركة القومية والحركة الإصلاحية قد ارتبطتا برباط واحد ارتباطاً محكما حتى أصبحت الواحدة تؤثر فى الأخرى فتتحمس الواحدة لنجاح الأخرى أو لفشلها ، إلى أن حصر الاصلاحيون مطالبهم بالتعديلات الإدارية ، وكان المعتدلون قد اتخذوا مبدأ العمل بمبدأ الأمراء شعاراً لهم . وحتى احتلال (فراره) كان الأمل ضعيفاً جداً فى الحصول على القانون الأساسى من بيوس أو لئوبولد أو شارل البرت . وكان الأحرار قد وحدوا جهودهم فى ثلاث مواد هى : حرية الصحافة وإيجاد الحرس المدنى وإقامة مجلس للدولة ، وقد حصلوا عليها فى طوسكانة ودويلات الكنيسة . وكانت الظواهر تدل على أن البلاد رضيت بما تم . وأخذت الحرب ضد النمسه تشغل بال أنصار مازينى فى ذلك الوقت أكثر مما تشغله فكرة الحكومة الشعبية .

ويتضح من ذلك أن جميع الأحزاب لم تفكر فى الدستور ، وأن الاشتراكية النظرية لم تكن قد انبثقت إلا قليلا بينما كان الاستياء الاقتصادى عظيماً . وحدث أن جاء الشتاء قاسياً جداً فقضى على كثير من أشجار الزيتون ، وأدت حرية التجارة فى انجلترة وإيرلنده إلى جر الحبوب إلى أسواقهم فارتفعت بذلك أسعار الحبوب فى إيطالية وبلغ الضيق فى جنوه أشده . وكان العمال يحملون حقداً دفينا على أسيادهم وفى فلورنسة ثار الصناع ضد أسلوب تأدية الأجر بالسلعة وادى فقدان الخبز إلى كثرة الفتن واشتدادها . أما فى طوسكانة فالأزمة أصابت صغار المزارعين والعمال ، فأخذ المحرضون من أى حزب كان يستغلونهم ، وفى الرومانى نهب الناس المخابز على مرأى من الشرطة ، وكان الناس يعدون هذه الفتن من عمل العملاء النمسويين أو رجال السانفيديست ، واتخذت الأمور فى ليفورنه شكلا جدياً ، وكان أهلها الأشداء قد تعلموا من (جرازانى) حب الدمقراطية فامتدت دعايات التحريض والإثارة طول الخريف واستولى الشعب بعد يومين من فتنة التبغ على المدينة ودعى جرازانى لقيادة الحركة فاستلم زمامها وأصبح الدكتاتور ، بيد أن الحركة لم تلق إلا عطفاً قليلا فى القسم الباقى من طوسكانه . ولما رأى الناس ضعف الحكومة أخذوا يلحون عليها بتأسيس حكومة دستورية وأصبح مؤكداً بأن الدستور وحده هو الذى يقلل من عجز القوة الإجرائية .

وساد الاقتناع نفسه فى بيمونته حيث كان المحافظون والإصلاحيون المفرطون على طرفى نقيض ، وكانت الجمعية الزراعية فى خلال السنتين الأخيرتين قد انشقت على نفسها بالنزاع بين الأشراف الأحرار بزعامة (كاميل كافور) والفرع الدموقراطى بزعامة سكرتير الجمعية (فاليريو) وامتد هذا النزاع إلى الشعب أيضاً فسعى دازجيلووفانتى مدبر مظاهرة ريمينى إلى إزالة الاختلاف ، وبدا للجميع أن الدستور وحده هو الذى يستطيع أن يطمن رغبات البلاد فرفع بالبو بنفسه مذكرة إلى الملك يرجوه فيها أن ينظر بعين الاعتبار إلى هذه الرغبة . إلا أن الاندفاع الحقيقى ظهر من قبل رجل كان الديمقراطيون يعدونه من المعتدلين المكروهين بل وأدعاهم إلى الريبة وهو كاميل كافور :

كان كافور ابن وزير من أشد وزراء الملك شارل البرت رجعية وكان عمره حينئذ سبعا وثلاثين سنة ، وكان فى شبابه من الراديكاليين إلا أنه أخذ يميل إلى الاعتدال حتى اصبح من أنصار طريقة العقار الإنجليزى والارتباط المتقابل بين الطبقات إلا أنه كان من الوطنيين الذين يكرهون اضطهاد النمسة والبابا ويحنق على الاستبداد الداخلى الذى عرقل التجارة وعد كل قريحة كفراً أو خيانة وطنية وقد ساح كثيراً فى انجلترة وفى فرنسة ورجع إلى بلاده يحمل حقداً على الأكليريكية وإيماناً قوياً بالتجارة الحرة وبالحرية الاقتصادية وبالنشاط السياسى السليم . ورغم أنه كان ارستقراطياً بالولادة

وبالبيئة التى نشأ فيها وبكثير من العادات فقد أظهر باطواره وبلباسه كرهه للمظاهر الأرستقراطية كزينة الرتب اعتقاداً منه أن الأرستقراطية مائلة للزوال فى المجتمع الحديث . وبالجملة فانه كان نبيلا ، جسوراً مثقفاً طويل الأناة لا ينفعل بسرعة حتى قال عنه (كويدن) أنه أقدر رجل عرفه ، متحلياً بعقل سليم ومن البديهى أن ينضم إلى الحركة القومية المعتدلة . وكان كافور لا يثق بالبابا المصلح وسرعان ما آمن بعقيدة بالبو التى تقول بزعامة بيمونته ، ومع أنه خاصم الدمقراطيين فى الجمعية الزراعية فإن أنظاره كانت تمتد إلى أبعد من نطاق مدرسة المعتدلين الضيقة . فسعى جاهداً إلى تأسيس حزب جديد ، يفتح أبوابه لكل من يحارب فى سبيل الاستقلال القومى تحت راية آل صافويه ، وكان يعلم بثاقب فكره أن الدستور ضرورى جداً لتأمين حكومة صالحة تفسح المجال للطموح الظاهر كطموحه ، وسرعان ماحانت الفرصة المناسبة ، عقيب عودة الملك من جنوه أدى جزع الناس إلى هياج جديد فاشتدت النقمة على اليسوعيين مما جعل المجلس البلدى يلتمس من الحكومة الموافقة على تأسيس حرس مدنى لصيانة الأمن ، وقد عزز هذا الطلب بالتماس آخر موقع بتواقيع كثيرة ، واجتمع محررو الصحف الكبيرة فى تورينو بـ(كافورو فاليريو وجيا كومو دوراندو وبروفيريو) للبحث فى أفضل الطرق لتأييد هذا الطلب ، واقترح كافور على المجتمعين المطالبة بالدستور ، ومع أن الأعضاء لم

يتفقوا على هذا الاقتراح ، إلا أن قرار الاجتماع أوضح القضية ، وبدا أنه فى أول فرصة مناسبة سمع صرخة مدوية فى سبيل الدستور .

ودلت الأحوال على أن أول مطالبة قوية مؤثرة قد حصلت فى الجنوب ، فنابولى كانت من الوجهة النظرية تملك الشىء الكثير مما تطالب به الدول الإيطالية الأخرى ، ومع ذلك فلم يكن هناك أمل فى أن تدخل النظريات فى ساحة العمل ما لم يراقب البرلمان السلطة الاجرائية . وكانت الأيام قد قوت شهوة الملك للحكم المطلق وزادت فى استبداده شكوكه حتى أن اعتبر المعتدلين والديموقراطيين والأشراف والطبقة الوسطى والنابوليين والصقليين خصومه على السواء . وقد نشر أحد الحقوقيين الشبان (ستمبريني) فى شهر تموز الماضى رسالة بعنوان احتجاج شعب الصقليين (نابولى وصقلية) وصف فيها الاستبداد وصفاً دقيقاً قضى على الخرافة القائلة بأن نابولى تتمتع بمؤسسات سياسية جيدة وختم رسالته بالعبارة الآتية : « إن العلاج الوحيد هو السلاح » وبما أنه قد عبر برسالته عن الشعور العام فإن دعوته إلى الثورة لقيت أذناً صاغية . وحيث إن اللجنة الثورية فى كلبريه قد حاولت عبثاً أن تجلب أحرار نابولى وصقلية إلى جانبها فى سبيل التحرر لذلك قررت أن تعمل وحدها . وفى ١ — أيلول شقت رجيو ومسينه عصا الطاعة ، إلا أن الحكومة سريعاً ما قضت على الحركة وأعدمت حياة سبعة وأربعين

رجلا . وكان من تأثير هذا العمل الظالم أن اشتدت المطالبة بالدستور ، وبينما كان الراديكاليون ينزعون إلى القتال للحصول على الدستور كان المعتدلون يأملون أن يوافق الملك على منح الدستور خوفاً أو طموحاً ، وكانوا يرغبون فى دستور يقضى بوجود مجلسين ، وكان الملك قد تأثر من الاجتماع الذى تم بينه وبين من يمثلون الأحرار ويتكلمون بلسانهم بعد أن لوح له هؤلاء بتاج إيطالية .

وبينما كان أهل نابولى يترقبون مجرى الأمور فى غير نشاط قرر أهل صقلية الحركة فوحد (كريسبى) أحد الحقوقيين الشبان حركة التآمر فى الجزيرة وفى الساحل ، وقد اضطرت لجنة نابولى شاءت أم أبت إلى الموافقة على الثورة بالاشتراك مع الصقليين فى بداية السنة ، فتثور مدينة باليرمو أولا مطالبة بدستور ١٨١٢ وبالحكم الذاتى ثم تثور نابولى بعدها لأخذ الدستور نفسه معدلا بعض التعديل . وبينما كان الناس فى باليرمو ينتظرون بهدوء شارة إعلان الثورة وإذ بالجمهور يتنكب السلاح ويهاجم الجنود صباحاً ، ثم انضم القرويون إلى المهاجمين ، واشتد القتال فى الطرقات واستمر ثمانية أيام كانت فيها الحامية فى موقف حرج ، وحاولت الحكومة تلافى الحالة بالتساهل على الأساس القديم أى بمنح الحكم الذاتى وحرية المطبوعات والعفو العام ولكن زعماء الثورة من جميع الطبقات أجابوا بأنهم لا يرضون عن دستور ١٨١٢ بديلا . ولما فشل قائد الحامية فى مباحثات الهدنة انسحبت فجأة من الساحل ،

وعبر البحر إلى نابولى ، وكانت المدن الأخرى قد ثارت أيضاً فلم يبق لحكومة نابولى معقل فى الجزيرة إلا قلعة مسّينة وثلاثة حصون أخرى .

وكانت الثورة فى صقلية فاتحة ثورات هزت أوروبا فى ربيع سنة ١٨٤٨ . وكان للجرأة التى أظهرها بضعة رجال فى هجومهم على الحامية القوية وانتصارهم العجيب وإسقاطهم الفجائى لحكم آل بوربون تأثير عميق فى إيطالية وفى أوروبا . ولم يف أهل نابولى بوعدهم الذى قطعوه لبالرمو لأن (كارلو بوثيريو) أنشط رؤساء المؤامرة كان سجيناً فظل الأحرار مكتوفى الأيدى ، وثار أولا قرويو (سيلنتو) وانتشرت الثورة فى أيالة ساليرنه . ولما شاع خبر اقتراب العصاة انتشر الذعر فى المدينة وتململ الأحرار الضعفاء وارتعد البلاط للأخبار المبالغ فيها . فاضطرت الحكومة إلى إخلاء سبيل (برثيريو) فنشط على أثر ذلك أنصاره للعمل ، وأعدوا مظاهرة كبرى لإقلاق الملك . ولما رأى فرديناند ضعف قواته استشار قواده مساء يوم ٢٧ كانون الثانى ثم منح الدستور .

قوى منح الدستور فى نابولى عزيمة الأحرار فى جميع أنحاء شبه الجزيرة وأخذوا يطالبون بمثله فى كل محل . وكانت بيمونته أول من تأثر بهذا الخبر . وأشار الوزراء على الملك فى ٢ شباط بمنح الدستور ، فكلف الوزراء بوضع لائحة دستور وظل متردداً

بين الرفض والقبول . وأخذ جزع الناس يشتد يوما فيوما ثم صوتت المجالس فى تورينو وفى جنوة للدستور ، وارتعد قسم كبير من الرجعيين من العاصفة فضموا أصواتهم إلى أصوات المطالبين به أملا من أن ينالوا الأكثرية فى مجلس الأعيان . وأشار مجلس الدولة على الملك بالموافقة لأن كل محاولة أخرى ستؤدى إلى حرب أهلية وارتاح ضميره حين نصحه مطران وطنى وتمت الموافقة على منحه فى ٨ شباط .

وامتدت الحركة من بيمونته إلى طوسكانه وكانت الحكومة قد أضاعت كل قوتها فى مقاومة الشعب ، ولم يبق لديها إلا الحرس المدنى الذى كان هو فى مقدمة المطالبين بالإصلاحات . وكانت الوزارة بين الأخذ والرد حتى وصلت أخبار فوز الحركة الدستورية فى بيمونته فقضت على التردد ، وأعلن الدوق الكبير الدستور فى ١١ شباط .

وبعد فوز الأحرار فى بيمونته وطوسكانة أصبح صعبا أن ترفض روما الدستور ولم يستطع البابا أن ينسى الإهانة التى لحقته فى حادثة (فرارة) فرفض الموافقة على طلب الحكومة التمسوية بمرور القوات من ممتلكاته لسحق حركة الأحرار فى نابولى ، فاذعن للحركة الجديدة إذ مال إلى جانب أشد المعتدلين ، وحمى التعليم ، ورعى خطط الإصلاحات ، ومنح الامتيازات لشركات السكك الحديدية . وكان مازينى قد أرسل كتابا مفتوحا ألح عليه

فيه بمسايرة جليه ليؤسس الوحدة الإيطالية ، ولـكن الأحرار كانوا ينسبون جميع الإهمال إلى الـكرادلة الذين ظل البابا متمسكا بهم فمل الناس الانتظار الطويل ، وفقد البابا سحره ، وأخذ حبهم له يتضاءل ، وأصبحت حظوته لدى الشعب تتوقف على إسراعه فى تلبية طلبات الشعب الملحة المتزايدة . وقد أصر (روسى) على إسراعه فى تلبية طلبات الشعب الملحة المتزايدة . وقد أصر (روسى) على البابا بالموافقة على وزارة علمانية وإقامة مؤسسات تمثيلية مهما كان شكلها وذلك لجلب المعتدلين إلى جانبه والقضاء على نفوذ المتطرفين ، وسئم المعتدلون الذين يؤلفون الأكثرية فى مجلس الدولة معارضة الحـكومة لقراراتهم ، وأصاب مساعيهم فى إصلاح التعليم والإدارة والجيش العقم حتى إنهم بعد مناقشة حادة مع البابا تركوا الميدان ، وأفسحوا مجال العمل للمتطرفين وحدهم . وقد مالت الأمور فى بعض أنحاء الرومانى إلى الفوضى ووقعت اغتيالات سياسية فى بعض الأماكن بحجة القضاء على السنتوريون . وأخذ مازينى على الرغم من الـكتاب الذى أرسـله يشجع أصحابه على الطعن فى البابا ، وحين أصبح المجلس مشلول الحركة اتفق الأحرار على تركيز مطاليبهم فى القيام بإصلاح داخلى وتعيين وزارة علمانية تستعد للحرب . وكان القوميون المحافظون على أهبـة الانضمام للمتطرفين لحمل البابا على تلبية المطالب الوطنية فاضطر بعد تردد طويل إلى الموافقة على تأليف وزارة أكثريتها علمـانية ولـكن

إرضاء البلاد بوزارة علمانية قد فات وقته ، وأخذت الالتماسات تتوارد من سائر أنحاء الرومانى وأومبريه وروما يطالب فيها المعتدلون والدمقراطيون مؤسسة تمثيلية . وأراد البابا وحكومته المماطلة ، ولكن لهيب الثورة أخذ يندلع فى فرنسه ، وتعاظم هياج الناس حتى أصبح التسويف يؤدى إلى نتائج خطيرة . فأظهر البابا آنئذ ميله للدمقراطية ، ووافق على مطالبهم ، لكن الكرادلة رفضوا الدستور الذى وضعه روسى وقبلوا دستوراً من صنع أيديهم واتخذوا الألوان الثلاثة راية قومية .

الفصل الثانى عشر

الوثبة القومية

وقد أصبح ميسوراً للأمة بعد أن انتهت القضية الدستورية أن توجه جهودها نحو الحرب ، وكان لانتصار الثورة فى فرنسه تأثير حاسم فى أوربا لأنه دل على أن التوفيق كان بجانب الحركات المناهضة واعتبرت النمسة خبر إعلان الجمهورية فى فرنسه ضربة موجهة إليها لأن الجمهورية فى فرنسة ستعطف حتما على الحرب التى تخوض إيطالية غمارها للحصول على حريتها ، وأيقنت النمسه أن فرنسه وانجلترة ستعلنان الحرب عليها فيما إذا أرادت أن تحتل الدويلات الإيطاليه الحرة ، وكانت مجزرة ميلانو قد اضرمت نار الحقد فى جميع أنحاء إيطالية حتى أخذ الناس ينظرون إلى المعركة المقبلة بفارغ الصبر ، وكانوا يعلمون أن الشارة يجب أن تعطى من قبل لمبارديه أو بيمونته ، وكان كل ما يستطيع أن يقوم به الوطنيون المتحمسون فى هذه الفترة أن يحملوا على اليسوعيين أصدقاء النمسويين لأن المعركة إنما كانت بين الاستبداد والدمقراطية ، فاليسوعيون كانوا بطبيعة الحال فى جانب النمسه ، وكان جيوبرتى قد ذكر فى كتبه ان الاتحاد النمسوى اليسوعى هو أكبر عقبة فى سبيل الإصلاحات ، وسمى اليسوعيين بالأعداء الألداء لإيطاليه ، ولما تأكدت الحكومات

فى إيطاليه من كره الشعب اليسوعيين قدمتهم طعمة لهم للسكين الهياج ، فترك الآباء اليسوعيون جنوه ، وكانت حوادث الدستور سبباً فى الهجوم النهائى عليهم فطردهم أهل ساردينه من الجزيرة ، ثم قامت مدينة تورينو والكسندرية وسبريه بالعمل نفسه ، وهرب الآباء من نابولى ليعودوا إليها متنكرين ، ولما وردت أخبار الثورة فى فينا طلبت الجماهير فى روما طردهم ، وعلى الرغم من أنهم علقوا الراية المثلثة الألوان على مبانيهم فإن البابا بيوس حاول أن يحميهم ثم اضطرت الحكومة أمام العاصفة إلى إغلاق مبانيهم .

أما فى لمبارديه فكان أهلها يستعدون للمعركة العظيمة ، وأخذ الناس يوالون اجتماعاتهم السرية فى أماكن معينة واجتمع آلاف من الناس فى الكتدرائية يشكرون الله صامتين على منح الدستور فى نابولى . أما فى البندقية فقد صرف الناس النظر عن عيد الكرنفال ، وجمعوا الأموال لضحايا فتنة التبغ وأوقفت الحكومة توماسو ومانين وأحالتهما للمحاكم بتهمة الخيانة العظمى ، إلا أن المحكمة برأت ساحتهما بعد دفاع مجيد ، فأودعتهما الحكومة السجن . ولاح لرادينسكى القائد العام فى ميلانو أن العصيان العام والحرب فى بيمونته على قاب قوسين ، ومع أن قوته كانت تبلغ سبعين ألفاً إلا أن نصف هذه القوة كان من الطليان الذين لا يوثق بهم فأخذ يرسل الرسالة تلو الأخرى يطلب المدد ، وأخذت القوات تتحشد فى غرويجية ، وترك نائب الملك والحاكم العام مدينة ميلانو

وكان للثورة الافرنسية أثر عظيم فى اندفاع البعض من المترددين وجعلت القسم الأعظم من الأهلين يفقدون الصبر فبعثوا إلى الملك شارل البرت يقولون : « إذا لم تتجازوا نهر تسينا فسنعلن الجمهورية » . وبلغ الاندفاع بالزعماء حداً رأوا معه أن لا يعتمدوا على الملك أكثر مما فعلوا وأن يثوروا فى بضعة أيام .

وكانت بيمونته تترقب الحوادث بدقة متناهية ، ففتنة التبغ ومجزرة الطلاب فى بافيه وأمور أخرى كانت تزيد النار اشتعالا ، وأصدر دازجيلو رسالة بمصائب لمبارديه ، ومع أنه كان من المعتدلين فقد صب اللعنات على النمسة كأكثر المتحمسين تطرفاً ، وقد تألفت وزارة جديدة برئاسة بالبو دخل فيها (باريتو) زعيم الأحرار فى جنوه . وكان بالبو يميل إلى الحرب ضد النمسة من جهة ويخاف من مطامع فرنسه فى صافويه من جهة أخرى . وبدلا من أن يحشد القواد على الحدود اللمباردية فقد وزعها على أنحاء المملكة ، ودعا ثلاثة دفعات إلى السلاح ، وقبلت الوزارة بفتور تكليف طوسكانة وروما بالحلف الدفاعى لتبقى حرة فى حركة الهجوم على ما يظهر ، أما الملك شارل البرت فعلى الرغم من خشيته مما تؤدى إليه الثورة الافرنسية ومن الطعن باليسوعيين ، فقد اجتمع برسل ميلانو وطمنهم بأنه وشعبه سيمشقان الحسام فى سبيل نجدة المدينة حين تثور .

وفى ١٧ — آذار وردت أخبار مهيجة إلى ميلانو وتتلخص فى أن الحركة فى هنغارية قد اشتدت ، ووصل صداها الايالات

الألمانية وأصبحت فينا معقل الاستبداد فى حالة عصيان مما اضطر مترنيخ إلى تقديم استقالته . فقد وعد الامبراطور بحرية المطبوعات وتأليف الحرس الأهلى ودعوة مجالس الدولة فى لمبارديه ، وشاهد الميلانيون صباح الغد مرسوم الامبراطور معلقاً فى الجدران من دون إشارة إلى حرية المطبوعات ، وكان الخبر قد وصل قبل ذلك ، فبذل الزعماء طول الليل جهدهم لترتيب مظاهرة وهيئوا البيانات وكان الشعب لا يحتاج الى مشوقات فقد تأكد من أن ساعة العمل قد حانت فكتب (كاساتى) على المرسوم هذه الكلمات « متأخر جداً » ، واجتمعت جماهير كبيرة من الأهلين برئاسة كاساتى وذهبت الى دار نائب الحاكم فقتلت الحفراء ودخلت الدار وأرغمته على التوقيع على المرسوم الذى وضعه رئيسهم ، وكان ينص على تسريح الشرطة وتخويل المجلس البلدى حق تأليف الحرس المدنى . وأراد كاساتى أن يتفاهم مع راديتسكى ، ريثما يحرك شارل البرت ساكنه إلا أن الزعماء الشعبيين رفضوا كل تفاهم لا يتضمن الاستقلال التام العاجل . فهاجمت الجماهير الجنود الذين كانوا يمرون بالشوارع بالآجر والحجارة والآنية ، وصبت عليهم الماء أو الزيت الفائر ، وهزمت جماعة مسلحة فوجاً بكامله ، ونهب الناس السلاح من الدكاكين التى تصلح السلاح ، وأقاموا الموانع فى الطرقات ، وقضت بعض القطع العسكرية ست ساعات فى معركة حامية لأجل أن تفتح لها الطريق إلى قصر البلدية . وفى

الليل أقام المتطرفون الشبان الذين قادوا الجماهير فى النهار مئات الموانع ، وفى صباح الغد استمر القتال بعنف ، وامتد إلى جميع أنحاء المدينة وبلغ من شجاعة الأهلين وحماستهم أن شابين قاوما سرية يوماً كاملا ، وقد اشترك فى القتال نساء وصبيان ، فقتل البعض منهم . وأخذت الكنائس تدق نواقيسها فتشجع المواطنين على الكفاح وتثير الذعر فى نفوس النمسويين . وفتح الأغنياء أبواب قصورهم للفقراء الذين أصبحوا بلا دور ولم تقع أى جريمة ما عدا بعض السرقات الطفيفة . وكان الفقراء يأتون بالذهب الذى وجدوه فى خزائن الحكومة وعومل الأسرى بعطف ووضعت الشرطة المكروهة فى مأمن .

وبوصول الإمدادات بلغت قوات راديتسكى عشرين ألفا فى ميلانو ومع ذلك لم تستطع أن تسيطر على الموقف إذ وهنت معنوياتها بالجوع وبالمطر الشديد . وكانت حادثة الكسوف قد ألقت الذعر فى نفوس الجنود من الخرواتيين المعتقدين بالخرافات وخضع البعض من الجنود الطليان ، بينما الآخرون ولا سيما الجنود من موارفيه وبوهيمية فقد دفعهم اليأس إلى القسوة فارتكبوا فظائع تقشعر لها الأبدان حتى راديتسكى نفسه لم يخجل من أن يأمر جنوده بقتل الأسرى من الأهلين . واضطر بعد ذلك إلى اخلاء الكتدرائية ، واستولى أهل المدينة على جميع الحصون المحيطة بها فقدر راديتسكى حرج الموقف إذ لو تحرك الجيش

البيمونتى بسرعة لقطع عليه خط الانسحاب فاضطر أخيراً إلى طلب الهدنة . إلا أن اللجنة التى استلمت كتابه رفضت شروط راديتسكى بعد أن هب الشعب يطالب باستقلاله وسفك دمه فى سبيل حريته .

وأخذ يتوارد على أذهان أهل ميلانو السؤال التالى : هل يجب أن يطلبوا مساعدة شارل البرت ؟ وكان أكثر زعماء الحركة من الجمهوريين الذين ينظرون إلى مدى أبعد من الاستقلال ، إلى عهد الأخوة والإصلاحات الاجتماعية العظيمة الشأن . وكان (كتاينو) أحد هؤلاء الزعماء يريد أن يحصر الحركة فى النزاع بين الدمقراطية الميلانية وبين الجيش النمسوى ، وكان يكره البيمونتيين كرهاً عظيماً وقد أرسلت إلى الملك فى ساعات القتال الأولى رسالة استنجاد فجاء الجواب وعداً بالمساعدة فيما إذا وصل اليه طلب من قبل شخصية ذات مقام فى ميلانو ، وأصبح الناس فى عشية الانتصار وهاجم المتطوعون الذين هرعوا من مونزه وكرمة وبرغامه ، الأبواب الخارجية فلم يبق بيد النمسويين فى صباح ٢٢ — آذار إلا القلعة والحصون . وهاجم أهل ميلانو الأبواب من الداخل واستولوا على أحدها مساء ثم استمر القتال طول الليل وكانت فى أثنائه مدافع القلعة تضرب المدينة . وكان راديتسكى قد قرر الانسحاب قبل يومين بعد أن أخذ الجوع والذعر يهددانه . وقد أظهرت الحادثة للعالم أن جماعة غير منظمة لا تملك السلاح

فى أول أمرها قد هزمت جيشا منظما كامل العدة بعد قتال عنيف استمر خمسة أيام ، سميت أيام ميلانو الخمسة وغدت من مفاخر إيطالية .

أما البندقية فقد تخلصت من دون سفك دماء وأعلنت الجمهورية ، إذ أنه حين وردت أخبار فينا فى ١٧ — آذار استولى الجمهور على السجن وأخلى سبيل مانين وتوماسّو ، وأدار مانين دفة الأمور بالكياسة التى تقتضيها الظروف . وكان أظهر مقدرة عظيمة كرجل سياسى فى قضية مد السكة الحديدية بين ميلانو والبندقية إذ استطاع بلباقته وصلابته أن يحمل السلطة على مد تلك السكة بصورة تلائم الرغبات القومية . وقد أدرك أن دور استعمال الوسائل المشروعة للحصول على الآمال الوطنية قد فات فأصبح الهدف الذى يتوخاه بعد خروجه من السجن هو طرد النمسويين من المدينة بلا سفك الدماء وصيانة أرواحهم إلى حين تأسيس الحكومة .

وكان لدى النمسويين سبعة آلاف مقاتل فضلا عن الأسطول المرابط بالقرب من المدينة ، ونصف هؤلاء الجنود والقسم الأعظم من بحارة الأسطول من الطليان ، والدلماسيين . وقد اضطربت السلطات فى المدينة لسقوط مترنيخ ولانقطاع أخبار فيينا عنها ، وحدث أن أطلق الجنود الرصاص على الجمهور فدق ناقوس كنيسة القديس ماركوس يدعو الأهلين إلى القيام ، ونشرت الرايات الثلاثة

الألوان ، وكان مانين يعرف كيف يعتمد على العامة من أهل البندقية ، وكان يقول للذين لا يثقون بهم : « أنتم لا تفهمونهم ومزيتى الوحيدة أنى أفهمهم » . وكان أول عمل قام به أن طلب إلى الحاكم الموافقة على تأليف الحرس المدنى ، وحين تمت الموافقة كان أربعة آلاف نفس قد انخرط فى سلك المتطوعين . وبينما كان البعض من الزعماء ميالا إلى قبول الدستور النمسوى الجديد كان مانين وصحبه يستعدون لإعلان الجمهورية بعد أن شجعتهم أخبار ميلانو ، وليس فى هذا ما ينافى الهدف العام فى الوحدة الإيطالية . فستندمج فنيسيه فيها نزولا عند إرادة الأمة ، وفكر مانين فى الاستيلاء على دار الصناعة البحرية ، وبينما كان يضع الخطة لذلك إذا بالثائرين يتسرعون فيقتلون الحاكم المكروه ، فأصبح همه أن ينقذ الموقف قبل أن ينتقم النمسويون ، فتقدم بعشرين رجلا من الحرس المدنى نحو دار الصناعة ، وكان يعلم أنه سوف ينال عطف العمال وأكثر جنود البحرية القائمين على حراستها ، واستحوذ الرعب على الضابط حين رأى رجال مانين واعتداده فسلم إليه مفاتيح دار الصناعة . وهكذا وقعت أعظم دار للصناعة فى إيطالية بيد مانين ، ثم أذعن النمسويون للأمر الواقع ، وأخلوا المدينة ، وحين غادروها أعلن الجمهورية ، وأصبح الدكتاتور .

وانتشرت الأخبار فى جميع أنحاء لمبارديه وفنيسيه ، وانحاز الجنود الطليان إلى المعسكر الوطنى فى مدينة (أودينو وبالمانوفه

وترفيسه وفيسنسه) ، وتحررت أيالة فينسيه تماماً ما عدا مدينتى (فيرونه ولجناجو) . أما فى لمبارديه فهاجم أهـل مونزه وبرغامه الحامية ، وبعـد قتال عنيف فى الشوارع اضطروها إلى التسليم أو الانسحاب . وأخلت حامية بافيـه المدينة ، وانضمت حامية (بريجتونة) إلى معسكر الوطنيين بسلاحها وعتادها . وهب أهل الجبل فى الشمال فاحتلوا المضائق حتى صار القسم الجنوبى من التيرول على أهبـة العصيان ، وأصبحت قوات النمسويين السائرة المشتتة فى الوديان فى حالة بؤس . وغـدت القوات النمسوية فى مانتويه وفيرونه وفى المدن الأخرى لا حول لها ولا طول ، وفيما وراء وادى بو استسلمت (كما كيتو) إلى متطوعى (رافيته) ؛ أما حكومة البابا فرفضت الموافقة على مهاجمة (فرارة) . وهكذا لم يبق بيد النمسويين سوى حصن (فرارة) والقلاع الأربع فى المدن الأربع . وكان للأيام الخمسة صـدى رنان دوى فى جميع أنحاء إيطاليه ، وقد أخبرت بارمه بعد التغلب على الحامية دوقها أن يمنحها الدسـتور وأن يدخل فى الاتفاق التجارى الإيطالى إلا أن ذلك لم يقنع الأهلين ، فاضطر الأمير بعد بضعة أسابيع إلى ترك البلاد ، وطردت مدينة (بياسنسة) اليسوعيين وأقامت حكومة أهلية . أما فى مودينه فهرب الدوق مع الحامية النمسوية على أثر اقتراب متطوعة بولونيه .

أما فى فلورنسة فأحرقت الجماهير شعار السفارة النمسوية ،

وذهب ثمانمائة متطوع إلى الحرب على النمسا . ولما رأت الحكومة أنها لا تستطيع المقاومة أعلنت الحرب ، وأعلن الدوق بعبارات طنانة : « أن ساعة البعث الإيطالى قد دقت » ، بينما اعتذر إمام النمسويين بأنه لم يفعل ذلك إلا حرصاً على سلامة العرش ، واجتازت متطوعة بولونية نهر بو ، دون أن تهتم لموافقة الحكومة على حركتها ، وتوغلت فى ايالة فنيسيه حيث كان روكى الذى هرب من السجن يسعى لجمع جيش من المتطوعة ومن الهاربين من الجيش النمسوى .

أما فى روما فذهب ألفان من المتطوعين إلى الحرب بعد وصول الأخبار بثلاثة أيام ، وكان جميع الجيش فيها على أهبة الحركة وأخذت المدن فى الأيالات ترسل متطوعيها حتى بلغ عددهم فى دويلات البابا حسبما قيل اثنى عشر ألفاً . وأرسلت نابولى متطوعتها أيضاً واستعدت الحكومة بعد أن رأت ضغط الناس عليها إلى إرسال ستة عشر ألفاً من جيشها النظامى بقيادة ببّة . وبعد مضى شهر أرسلت صقلية أيضاً قوة صغيرة ، وهكذا طفت الموجة الوطنية الزاخرة على إيطالية ، وجرفت معها البابا والأمراء ورجال الاكليروس والأشراف والتلاميذ والعمال والطبقة الوسطى كلها والمدن والأرياف . وانتابت الجماهير نوبة من الحماسة لإنقاذ لومبارديه وفنيسيه من الحكم الأجنبى ، فمن الطلاب والعمال الذين تركوا أهلهم ودراستهم وذهبوا إلى ميادين القتال البعيدة لمحاربة

العدو واحتمال المصائب ، إلى الفتيان الذين تشردوا من المدرسة للاشتراك بالحرب ، وأخذ الأحداث فى المدارس المدنية يتدربون على أساليب الجندية ، فلا القانون ولا الأشغال الرسمية كانت تستطيع أن تحول دون إقبال الشعب على السلاح ، وأخذ الناس كلهم يلبون نداء الرهبان الوطنيين ويتبرعون بالمال لينفق فى سبيل الحرب . وقدم الأغنياء ذهبهم وحلاهم ، وأعطى الفقراء أثمن شىء لديهم وأخذت الحماسة فتاة من مدينة بولونيه فقصت شعرها وقدمته . وكان الرهبان يباركون الأعلام ، وحمل المتطوعون على أكتافهم الصليب وذهبوا للقتال فى سبيل قضية مقدسة .

وما أسرع ما لبت تورينو نداء ميلانو ففى اليوم الثانى من الأيام الخمسة امتلأت الطرقات المؤدية إلى الحدود بجماهير النافرين إلى الحرب ، وكان كافور يخطب فى حماسة بالغة فى المجالس الخصوصية وفى العلانية صائحاً : « إلى الحرب إلى الحرب ، بلا تريث » . وكان الشرف يقضى على بيمونته بأن تنضم فوراً إلى جانب لومبارديه ، وقد سنحت الفرصة لشارل البرت كى يرضى طموحه القديم ، وينتقم من النمسة ، ويغسل عار سنوات حداثته ، وبرهن حقاً على أنه (سيف ايطاليه) . وقد كانت الثورة الإفرنسية بمثابة إنذار له فإذا انتظر أكثر من ذلك فقد تعلن الجمهورية فى لومبارديه ويتزعزع عرشه ، ورغم ذلك فإنه بقى ينتظر وتتنازعه الخشية من مصير هذه العاصفة الدموقراطية وتدعوه لمؤازرتها

والخوف من لوم السياسة الأوربية واتهام رجالها إياه بأنه اتفق مع الثورة .

وفى ٢٢ آذار تأكد من أن الشروط التى اشترطها على الميلانيين قد نفدت ، واطمأن إلى أن حركتهم ليست جمهورية فاتجه عزمه نحو الحرب وفى المجلس الذى ترأسه كان وزراؤه الضعفاء الحائرون لا يزالون مترددين ولكن الوزيران (باريتو وريجى) من أهل جنوه قالا بإعلان الحرب فوراً كما يرى الملك ، ولم يستطيعوا إقناع زملائهم بذلك الرأى إلا بمشقة كبيرة ، وفى الغد جاء الرسل من ميلانو يحملون بشرى الانتصار ، وحمل الملك الوشاح الثلث الألوان الذى أرسلته المدينة ، وصرح أمام الجمهور بأنه يقف نفسه فى سبيل قضية الأمة ، وأعلن بعد يومين من ذلك فى ندائه للحرب أنه دائماً يقدم مساعدته لشعوب لمبارديه وفنيسيا ، باسم الله والبابا وما يبذله الأخ لأخيه والصديق لصديقه .